القسم الثاني

الانبعاث الإسلامي في العالم العربي

دراسة حالات

مصر

سوريا

العراق (الحركة الشيعية)

السعودية

الخليج

obeikandl.com

obeikandl.com

القسم الثانى : الانبعاث الإسلامى فى العالم العربى

دراسة حـــالات

٦ – مصـــر : مهد الأصولية الإسلاميـة

كانت « جماعة الإخوان المسلمين » ، أكثر من أى منظمة أخرى ، مركز انطلاق الأصولية فى المحيط العربى وفى العالم الإسلامى . وقد بقيت الجماعة حية أكثر من خمسين عاما رغم الضربات المتوالية من الدولة والصراعات الداخلية . والقوة الأساسية وراء بقاء « الإخوان » متأصلة فى الأساس الوطيد للعقيدة والثقافة الإسلاميّتين حيث تكمن شخصية معظم المصريين . ورغم أن أصل « الإخوان » مصرى ، إلا أن تأثيرها الروحى والسياسى كان واضحا فى كل البلاد العربية تقريبا وفيما وراءها . والحق أنه من المستحيل أن نفهم الأصولية الإسلامية السنية المعاصرة ومظاهرها العربية بدون فهم راسخ لأصول « الإخوان » وتطورها .

مولد الإخوان :

أسست عام ١٩٢٨ على يد « حسن البنّا » فى الإسماعيلية . وتأسيسها يمثل التقاء التيارات الاجتماعية القوية مع شخصية البنا الآسرة[١] . كانت مصر

---

(١) انظر عن شخصية البنا : رفعت السعيد ، « حسن البنا » (القاهرة ، ١٩٧٩) ، ص ٤٦ – ٥٩ . وكذلك ، إسحاق موسى الحسينى ، « الإخوان المسلمون » (بيروت ، مكتبة خياط ، ١٩٥٦) ص ٢٥ – ٣٨ . وعن « أسْر الشخصية » (Charisma) ، انظر : ماكس فيبر : « نظرية المنظمة الاجتماعية والاقتصادية » (نيويورك ، ط/جامعة أكسفورد ، ١٩٤٧) . (ا.) .

فيما بين الحربين مركزاً لضغوط متصارعة مذهبية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، خلقت بيئة ملائمة لظهور « الإخوان » . وجو المحنة هذا الذى سبق « البنّا » إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد تميز بتغلغل أوربى سياسى وثقافى واقتصادى تحت سيطرة البريطانيين وأسرة محمد على الوافدة . وقد تمثل رد الفعل المصرى فى نموّ تيارين خلال جوّ المحنة هذا . كان الأول هو « الوطنية المصرية » ويرمز إليه أحمد عرابى باشا (١٨٨١) ضد الخديوى وحماته الأوربيين ، وجهود الكفاح بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ضد البريطانيين . أما الثانى فكان الاصلاح الإسلامى (السلفية) برعاية الشيخ محمد عبده . هذه الاستجابات الوطنية والإسلامية ذات العلاقات المتبادلة وجدت أرضا خصبة فى فترة ما بين الحربين وسط جو المواجهة الثلاثية بين الملك والبريطانيين والسياسيين الوطنيين بقيادة « حزب الوفد » . لكن تصور المصريين يرى أن هذه الحركات الفكرية والسياسية الاجتماعية لم تنجح فى تحرير مصر من النير البريطانى وتأثيرات الغرب الثقافية والاقتصادية المفسدة وسوء حكم القصر والسياسيين . كما أن القيادة المصرية لم تستطع بناء صيغة مذهبية لتشكل بها عملية بناء الأمة والتطور الاجتماعى والاقتصادى . ومن هنا كان رد فعل « البنا » تجاه جو المحنة هو الدعوة إلى العودة إلى أصول الإسلام ، أى الدعوة إلى الأصولية . كانت دعوة البنا خلفا مباشرا لحركات الإحياء السابقة .

البنّا : تجسيد الأصولية :

يمكن اعتبار حسن البنا ، أكثر من أى فرد آخر ، مجسّد الإحيائية السنّية فى القرن العشرين . كان تجسيدا فريدا للروحانى الصوفى والعالم المسلم والقائد الحركى الذى امتلك قدرة نادرة على تحريك تأييد الجماهير من خلال ترجمة المبادىء العقدية المعقدة إلى عمل اجتماعى . وإذا كانت حركة البنا قد أعوزها العمق الفلسفى الموجود فى السلفية ، فإنها قد نجحت فى إيقاظ الجماهير وتنظيمها لتتبعها كما لم يحدث لأى حركة إسلامية فى القرون الأخيرة . كان البنا ، بشكل فذّ ، غير مهتم بالتعقيدات الفلسفية نظرا لأنه كان مكرّسا نفسه لإحياء المجتمع الإسلامى بغض النظر عن تقسيماته الطائفية أو الداخلية أو غيرها . اعتمد البنا فى نشر مذهبية « الإخوان » على القرآن وكتب الحديث الستة المعتمدة . كذلك

ارتكز البنا على سوابق الفكر والعمل التى أرساها قادة دعاة الأصولية كابن حنبل وابن حزم والنووى وكثيرون من الحركيين المنظرين وأبطال التاريخ الإسلامى[٢] .

شكّلت « جماعة الإخوان » الامتداد التنظيمى لشخصية البنّا الآسرة والانعكاس البنائىّ لرؤيته ، وذلك مع المحافظة على النمط العالمى للقيادة الأصولية . وظهور البنّا مثال يجسّد الشخصية الآسرة التى تظهَر أوقات الأزمات لتقوم بمهمّة الخلاص الاجتماعى – الروحى كما حددها « وبر » (Weber) . واجه البنّا – وهو نتاج بيئة الصراع فى مصر – أزمة شخصية[*] سعى ليحلها عن طريق إسقاطها على مستوى المجتمع . ومن هنا ، فإن البنّا يمثل أيضا الزعيم الملهم ، الذى قال به « أريكسون » ، والذى يتحولّ سعيه نحو الخلاص الشخصى إلى رسالة تعيد المجتمع إلى الطريق الصحيح . وفى حالة البنّاهذه، وُجّهت الرسالة الخلاصية إلى المؤمنين من المصريين الباحثين عن حلول لمشكلاتهم النفسية والروحية والاجتماعية والاقتصادية . ومن ثم كان « التطابق » بين رسالة (الشخصية) الآسرة والمجتمع الواقع فى أزمة حيث انضمت أعداد متزايدة من المصريين إلى « الإخوان » تحت راية التطهر الإسلامى النضالى .

« الإخوان » فى وضع ثورى :

أصبحت « الإخوان » ، منذ بداياتها المتواضعة ، من أقوى المنظمات فى مصر أواخر الثلاثينيّات . اجتذبت أعضاء من قطاعات عديدة من المجتمع : الإداريّين (البيروقراطيين) والمهنيين والطلاب والعمال وصغار أصحاب المحلات وبعض الفلاحين . أنشأ البنّا جهازا قويا للتنظيم والدعاية ، وحاول تدريجيا أن يكون له دور سياسى فى الشؤون المصرية . وقد وضعت سنوات الحرب البنّا فى صراع مع السلطات البريطانية والحكومة المصرية . قبض عليه أكثر من مرة بينما

---

(٢) انظر « خمس رسائل لحسن البنا » (١٩٠٦ – ١٩٤٩) ، ترجمة وتعليق تشارلز وندل (بيركلى ، ط/جامعة كاليفورنيا ، ١٩٧٨) ص : ١٠٠ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٩٦١ . (أ.) .

(*) لم يكن لدى البنا ولا من انضموا إلى جماعته أزمة شخصية أو مشاكل ، وإنما كان انتماؤهم إلى الفكر الإسلامى لنصرة دين الله لا لحل مشكلاتهم الخاصة ، كما سبقت الإشارة .

استمرت المنظمة فى إهاجة الجماهير ضد البريطانيين وفى أنشطتها السرّية المتمركزة حول « النظام الخاص » ، أو كما يعرف باسم « الجهاز السرى » . وفى نفس الوقت كان البنا ينشر أهداف منظمته ، ويؤكد فى بيانه المشهور على العلاقة الغريبة بين الأصولية الإسلامية والمجتمع المدنى ويعكس النظرة العالمية للإسلاميين الأصوليين تجاه الحقيقة الاجتماعية :

« أيها الإخوان : أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزبا سياسيا ولا هيئة موضعية لأغراض محدودة المقاصد . ولكنكم روح جديد يسرى فى قلب هذه الأمة فيحييه بالقرآن ؛ ونور جديد يشرق فيبدّد ظلام المادة بمعرفة الله ؛ وصوت داعٍ يعلو مردّدا دعوة الرسول (ﷺ)(*) ؛ ومن الحق الذى لا غلو فيه أن تشعروا أنكم تحملون هذا العبء بعد أن تخلى عنه الناس . إذا قيل لكم إلام تدعون ؟ فقولوا ندعو إلى الإسلام الذى جاء به محمد (ﷺ)(*) والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه . فإن قيل لكم هذه سياسة ! فقولوا هذا هو الإسلام ونحن لا نعرف هذه الأقسام . وإن قيل لكم أنتم دعاة ثورة ! فقولوا نحن دعاة حقّ وسلام نعتقده ونعتزّ به . فإن ثرتم علينا ووقفتم فى طريق دعوتنا ، فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا وكنتم الثائرين الظالمين ... »(٣)(*) .

وإعلان البنا أن جماعته ليست حزبا سياسيا لم يمنعه هو وأتباعه من العمل لاستقطاب أكبر عدد من المؤيدين ولا من التظاهر ، وحتى المشاركة فى الانتخابات السياسية . وقد وصلت الجماعة إلى الأوج عند نهاية الحرب الثانية حين كافحت ضد القصر والوفد والبريطانيين . وفى نفس الوقت ، كان البنّا قد أقام تنظيما بلغ أتباعه المليون مع جهاز عمل محكم يغطّى كل جوانب الحياة الاجتماعية : الدعوة ، العمل ، الفلاحين ، الطلبة ، الموظفين ، الحياة العائلية ،

---

(٣) ريتشارد ب . ميتشيل ، « جماعة الإخوان المسلمين » (لندن ، ط/جماعة أكسفورد ، ١٩٦٩) ، ص ٣٠ . (إ.) . لمزيد من المصادر عن الإخوان ، انظر : زكريا سليمان بيومى ، « الإخوان المسلمون » (القاهرة ، ١٩٧٩) .

(*) النصّ العربى من رسالة البنا « بين الأمس واليوم ». وعبارة « ﷺ » موجودة فى النص الأصلى ، ولكن هذا المؤلف ، أو ريتشارد ميتشيل ، أسقطها ووضع مكانها نقطا فى الموضع الأول ثم أغفل حتى هذه النقط فى الموضع الثانى ؟!

الرياضة البدنية ، الخدمات القانونية ، الصحافة ، النشر ، والشؤون الاقتصادية والمالية . لقد حاولت الجماعة – انطلاقا من إخلاصها لعقيدتها – أن تبنى أمة : أن تبنى دولة إسلامية داخل الدولة المصرية . وفى أواخر عام ١٩٤٨ ، أصبح ينظر إلى الجماعة على أنها أخطر تهديد للحكم الملكى . وفى مطلع ديسمبر حلت الحكومة الجماعة خوفا من ثورة وشيكة ، وذلك بعد اشتراك الأخيرة فى أعمال عنف فى الشارع واغتيال عدد من الشخصيات البارزة(*) ولم تفلح جهود البنا الشخصية فى المفاوضات مع النقراشى ، حيث قرّر رئيس الوزراء إطلاق العنان لقوى الدولة بأكملها ضد الإخوان . وفى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ اغتيل النقراشى على يد أحد « الإخوان » ، وهو عمل جرّ على الجماعة عصرا من الإرهاب أدى إلى اغتيال البنا فى ١٢ فبراير ١٩٤٩ على يد عملاء للحكومة .

انتهت فترة القهر بتولّى حزب الوفد الحكومة فى يناير ١٩٥٠ واستعادت الجماعة وضعها القانونى . وفى أكتوبر ١٩٥١ انتخب القاضى حسن الهضيبى « مرشدا عاما » وقت أن بدأت كتائب الإخوان تقاتل البريطانيين فى منطقة قناة السويس . فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ اشتعلت أعمال شغب جماعية ضد الوجود البريطانى بلغت ذروتها فى تدمير منشئات يملكها غربيون فى قلب القاهرة ومنها فندق شبرد . وقد اتهمت الجماعة بالاشتراك ، لكن لم تثبت التهمة . فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، حدث انقلاب على الملك فاروق على يد مجموعة عسكرية بقيادة اللواء محمد نجيب والبكباشى جمال عبد الناصر دون مشاركة فعالة من « الإخوان » وقيادتها(**) .

فى العام الأول للثورة كانت العلاقة بين الإخوان والنظام العسكرى وُدِّيّة . لكن فى منتصف ١٩٥٣ أصبح واضحا أن « مجلس قيادة الثورة » بقيادة عبد الناصر يتجه نحو دولة علمانية أكثر من اتجاهه نحو حكم إسلامى(٤) . ومن

---

(٤) ر . هـ . دكمجيان : « مصر تحت عبد الناصر » (ألّبنى ، ط/جامعة سيراكيوس ، ١٩٧١) ص ٢٥ . (أ .) .

(*) يشير إلى الأعمال التى وجّهت إلى المنشآت اليهودية التى تموّل إسرائيل والأشخاص الموالين للانجليز واليهود .

(**) أثبت صلاح شادى عكس ذلك .

صفحات من التاريخ ، ط ٢ ، الكويت (١٩٨١) ، ص ١٦٩ ، ١٨٩ .

هنا ، وفى جوّ الصراع الناشىء بين عبد الناصر ونجيب حول السلطة ، أيّد الإخوان الأخير حين انضموا إلى الأحزاب المحظورة فى المظاهرات التى نادت بحكم مدنى . وقد قام العسكريون بسحق مظاهر المعارضة هذه ، بينما أُخرج من صفوف الضباط بحجة التطهير مئات من الوفديين واليساريين والإخوان المتعاطفين . وفى أبريل ١٩٥٤ كان عبد الناصر قد قوى مركزه فى مجلس قيادة الثورة وفى الجيش . لكن صراع الإخوان مع عبد الناصر لم يشتّد إلا حين عقد عبد الناصر اتفاقية مع بريطانيا فى ١٩ يوليو ١٩٥٤ يتم بموجبها الجلاء عن منطقة القناة ، وقد عارض الإخوان الاتفاقية واعتبروها « خيانة » وذلك كمحاولة لحشد المعارضة المصرية والعربية ضد عبد الناصر . وقد تميز الصيف ومطلع الخريف بلون من التعايش غير السهل توقّف بمحاولة لاغتيال عبد الناصر (٢٦ أكتوبر ١٩٥٤) ، اتهم فيها الإخوان . وقد أدى ذلك إلى قمع جماعىّ للجماعة وإلى القبض على قيادتها وعلى ما يزيد على ٤٠٠٠ من أعضائها(٥) . وقد حوكم كبار قادة الإخوان أمام « محكمة الشعب » المؤلفة من ضباط من « مجلس قيادة الثورة » هم جمال سالم وحسين الشافعى وأنور السادات . أعدم ستة من المتهمين وحكم على الهضيبى بالسجن مدى الحياة ؛ وبعد ست وعشرين سنة اغتالت إحدى فصائل « الإخوان » ، الجهاد ، أنور السادات فى ٦ أكتوبر ١٩٨١(٦) .

المَعْلَم الرئيسى للأصولية الإسلامية ولصورتها المجسّدة فى « الإخوان » هو قدرتها على إحياء نفسها بعد فترات من السكون . وقد شرع النظام العسكرى ، الذى حطّم بشكل منتظم جهاز « الإخوان » أواخر ١٩٥٤ ، فى السعى لاكتساب ولاءات الجماهير المصرية والعربية فى مدّ تنامى شعبية عبد الناصر

---

(٥) السابق ص ٣٢ – ٣٣ . من أجل تقرير مفصل عن اضطهاد الإخوان ، انظر : جابر رزق ، « مذابح الإخوان فى سجون ناصر » (القاهرة ، ١٩٧٧) .

(*) وانظر كتاب « صفحات من التاريخ » للأستاذ صلاح شادى لتفصيل أسباب معارضة اتفاقية الجلاء . وراجع أيضا كتاب « لعبة الأمم وعبد الناصر » للأستاذ محمد الطويل حيث أثبت أن محاولة الاغتيال دبرها عبد الناصر بالاتفاق مع الأمريكان ليمكن التخلص من محمد نجيب ومن الإخوان ، انظر : ص ٩٤ – ١٢١ (مطابع الأهرام ، الناشر : المكتب المصرى الحديث ، القاهرة ، ١٩٦٨) .

(٦) ليس ثمة دليل مباشر على أن وجود السادات فى المحكمة كان السبب الرئيسى فى اغتياله .

الآسرة . كذلك ، فقد اقتبست مذهبية عبد الناصر فى الاشتراكية والوحدة العربية جزءا مهمّا من « دعوة » « الإخوان » . لقد استطاع عبد الناصر أكثر من عشر سنوات أن يقدّم للعرب كثيرا مما وعدهم به « الإخوان » : الكرامة والوحدة والمشاركة الشعبية ومعارضة الغرب وشكلا مظهريا للعدالة الاجتماعية – الاقتصادية . ولم يدخل العقد السابع حتى أصبحت الناصرية مرهقة بسبب الانفصال السورى وحرب اليمن والمشاكل الاقتصادية ، فهيأت بذلك الجوّ لعودة « الإخوان » إلى الظهور ثانية عام ١٩٦٤ . فى هذه السنة أفرج عبد الناصر عن « الإخوان » ، ربما ليواجهوا الشيوعيين .

لكن الجماعة يحتمل أنها تورطت ثانية فى التآمر ضد النظام . اكتشفت أجهزة الأمن الخطة منتصف ١٩٦٥ مما أدى إلى اعتقالات واسعة(*) . شنق ثلاثة من الإخوان البارزين ، منهم « سيد قطب » منظّر الجماعة وسجن أكثر من مئة ، المهم أن كثيرين من المتآمرين كانوا نسبيّا من الشباب من أبناء الطبقة الوسطى الجديدة – مهندسون وكيميائيون واختصاصيو علوم وطلاب(٧) . هذا النمط من النضالية الإسلامية بين الشباب ذوى التخصصات العلمية أصبح سمة بارزة بين أعضاء الجماعات الأصولية فى السبعينات . كانت الحياة الصعبة داخل السجون تجربة قاسية شكلت مجرى الحركة الإسلامية فى مصر فى المستقبل . وقد أنتجت حدةُ القمع تحليلا مؤلما للذات بين الإخوان وإعادةً للنظر فى موقفهم . كانت هناك مناظرات واسعة النطاق داخل جدران السجن أدت إلى معارك وانشقاقات . وقد سرى بين الأعضاء الشباب شعور عميق بالتحرر من الوهم فيما يتصل بكبار

(*) لم يثبت تورط الإخوان فى حادثى ١٩٥٤ ، ١٩٦٥ ، بل كانا من تدبير أجهزة الأمن (!) لتصفية الجماعة . انظر : فهمى هويدى : « العنف ليس إسلاميا » ، جريدة الوطن الكويتية ١٩٨٧/٥/٢٦ ، ص ١٣ . وانظر كذلك : « لعبة الأمم وعبد الناصر » ، محمد الطويل (مرجع سابق) ص ٩٤ ، ١٢١ . أما إفراج عبد الناصر عن الإخوان ، فإن عبد الناصر كان قد تحالف مع روسيا ونشرت الأهرام أن الحزب الشيوعى المصرى قد حلّ نفسه للعمل من خلال الاتحاد الاشتراكى ، فهو لم يفرج إذن عن الإخوان لمواجهة الشيوعيين ، ثم إن من أُفرج عنهم كانوا عددا قليلا ممن أكمل مدة السجن المحكوم بها وهى عشر سنوات ، وظل المحكوم عليهم بأطول من ذلك داخل السجون .

(٧) دكمجيان ، « مصر تحت عبد الناصر » ، ص ٢٥٧ . (إ.) .

القادة من الإخوان ، الذين اشتغلوا بمجادلات ثانوية وكان يعوزهم الجَلَد الذى يحفظهم من الانهيار تحت التعذيب[٨] .

أتيحت للإخوان فرصة جديدة للعودة بعد مأساة حرب ١٩٦٧ . فقد خلق عِظم الكارثة أزمة عميقة فى الشرعية اكتسحت القادة العرب والمؤسسات العربية ، بما فى ذلك تقليص واضح من جاذبية عبد الناصر الآسرة . أحدثت الهزيمة هزات داخل المجتمع العربى أدت إلى انطلاق موجة من فقد الذات وفحصها لم يسبق لها مثيل فى التاريخ الحديث ، بات من المسلّم به بشكل عام أن الحلول المذهبية الماضية غير كافية لعلاج أمراض المجتمع العربى التى تضاعفت ؛ ومن هنا كانت الدعوة إلى تغيير العقلية والتحول النفسى والروحى[٩] . وبينما لم يكن ممكنا – فى حالة الهيجان التى أعقبت حرب يونيه – التأكد من وجهة هذا التغير الأخلاقى والسلوك فى المستقبل ، كانت الدلائل ، عند التأمل ، تشير إلى رجعة مذهبية إلى الإسلام بين قطاعات كبيرة من الشعب المصرى والعربى . وفى مواجهة الهزيمة وأزمة الهوية التى انتشرت ، فإن الجماهير ، وهى تتراجع عن النموذج المذهبى المبنىّ على الوحدة العربية ، لم تركز النظر على البدائل الثورية الاشتراكية أو الغربية أو الماركسية[*] . وإنما فقط على الإطار الأخلاقى – السلوكى المحلى الوحيد والمتاح ، وهو الإسلام فى صورته الأصولية .

ومن المفارقات أن ظهور الأصولية بعد الحرب لقى تسامحا بل تشجيعا من السلطات فى مصر والبلاد العربية . وقد حاول القادة العرب ، لمواجهة أزمة الشرعية التى نتجت عن الحرب ، التوسع فى صيغ إضفاء الشرعية على أنفسهم عن طريق اختيار الإسلام طمعا فى تحييد الإسلاميين وزيادة التأييد الشعبى إلى أقصى حد . بدأت أجهزة الإعلام وخطب القادة تُحَلَّى بإشارات إلى الله والرسول والقرآن الكريم . وعلى سبيل المثال تغطية أجهزة الإعلام لحضور الرئيس

---

(٨) رزق ، « مذابح » ، مرجع سابق ، وكذلك : سعد الدين إبراهيم ، « تشريح الجماعات الإسلامية النضالية فى مصر » . دورية : المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ، ١٢ ، ع ٤ (ديسمبر ١٩٨٠) : ٤٣٤ – ٤٣٥ . (إ.) .

(٩) دكمجيان ، « مصر تحت عبد الناصر » ، ص ٢٥٧ . (إ.) .

(*) هذه البدائل سبق تجربتها وفشلت ولهذا لم ينظر الشباب إليها .

عبد الناصر الاحتفال بالمولد النبوى فى المسجد بعد يومين من حرب يونيه . أكثر من هذا ، استخدم النظام عقيدة القضاء والقدر الإسلامية ، فى مناورة دعائية ماهرة ، للتهرب من مسئولية الهزيمة . فقيل إن قدر الله كان وراء الهزيمة كى يستيقظ الشعب المصرى . وتبعا لهذا المنطق قيل : « لقد أخلصت إسرائيل لدينها فانتصرت ، وانهزمنا نحن لأن إيماننا لم يكن بهذه القوة »[١٠] . وقد وافق « الإخوان » الحكومة على أن ثمة حاجة إلى العودة إلى الله ، لكنهم لاموا النظام لبعده عن الدين . كما رأى « الإخوان » فى الهزيمة انتقاما إلهيا من نظام عبد الناصر لقمعه الجماعة : « إن من يحاربون جنود الله (الإخوان) أو يضطهدونهم سوف يُهزَمون كما هُزِم فرعون أمام موسى » (عليه السلام)[١١](*) . وكانت النتيجة أن « الإخوان » وجدوا فى الفراغ السياسى والمذهبى بعد الحرب فرصة مواتية لإحياء جماعتهم . وفى نفس الوقت تشكلت جماعات إسلامية جديدة ، خاصة من جيل الشباب النضاليين الغاضبين .

مصر فى عهد السادات . سيطرة الأصوليـــة

أزال موت عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ العقبة الرئيسية أمام ظهور الأصولية الإسلامية ظهورا كليا ، كما كان تولّى السادات الحكم فرصة نادرة أمام « الإخوان » لتأكيد حضورهم فى مصر . واجه السادات ، كرئيس ، تحدّيين مباشرين : تثبيت قوته ومواجهة إسرائيل فى سيناء . كما واجه السادات ، فى الداخل ، أزمة شرعية حيث أنه كانت تعوزه شخصية سلفه الآسرة ؛ كما أنه لم يكن لديه أساس آمن فى بنية القوة المصرية التى كانت تحت سيطرة منافسيه من الناصريين . ولكى يعادل قوة هؤلاء الأخيرين ، أطلق السادات سراح

---

(١٠) حسن حنفى : « وكانت النكسة نقطة تحوّل » ، الوطن (١٩٨٢/١١/٢٠) .

(١١) نفسه .

(*) لقد أعلن عبد الناصر فى خطاب ٢٣ يوليو ١٩٦٧ أنه هو المسؤول عن النكسة ولم يشر إلى القضاء والقدر الذى فهمه المؤلف خطأ .

« الإخوان » المسجونين وشجعهم على اتخاذ مواقع لهم فى اتحادات الطلاب وسواها فى المجتمع(**) . استغلّ السادات بنجاح عداوة « الإخوان » التاريخية للناصريين حين وضعهم فى مواجهتهم . سارت عملية التخلص من الناصرية بسرعة بفضل حركة التطهير التى قام بها السادات ضد خصومه فى مايو ١٩٧١ وبعد حرب أكتوبر التى بدأت فى شهر رمضان تحت الاسم الحركى « بدر » ، الموقعة التى انتصر فيها محمد (ﷺ) على أهل مكة . دفع النجاح النسبى للجيش المصرى السادات إلى أن يجعل من نفسه « بطل العبور » ، فى محاولة لرفع شرعيته إلى أقصى حد . وعلى أساس هذا الزعم المشكوك فيه بالشرعية ، تقدم السادات إلى القيام بمبادرات سياسية ثلاث مترابطة :

١ – التخلص من آثار الناصرية فى المجتمع المصرى على أساس التخلص من القطاع العام الاشتراكى ؛

٢ – إقامة « الانفتاح » على الغرب توقعا للمساعدات الاقتصادية والاستثمارات الأجنبية ، خاصة من الولايات المتحدة ، لخلق قطاع خاص كبير ؛

٣ – التقرّب من الولايات المتحدة ، والعمل ، فى نفس الوقت ، على إضعاف الروابط الاقتصادية والعسكرية والسياسية مع الاتحاد السوفيتى .

اقتضى سعى السادات من أجل الشرعية زيادة الاعتماد على القضايا الإسلامية كبديل جزئى للفراغ المذهبى الذى خلقه بنبذه الحثيث للناصرية . قرر دستور ١٩٧١ أن الإسلام هو الدين الرسمى للدولة ، كما أعلن أن « الشريعة » مصدر من مصادر التشريع . وعلى الرغم من محاولات السادات استمداد شرعيته من سياساته المؤيدة للإسلام ومن دوره « البطولى » زمن الحرب ، فقد اهتز نظامه فى أبريل ١٩٧٤ بالهجوم المباشر على الكلية الفنية العسكرية . كما لاقت تحركات السادات العسكرية والديبلوماسية أثناء الحرب وبعدها معارضة من بعض

(**) السادات لم يفرج عن المسجونين بل عن المعتقلين ، وبدأ بالإفراج عن العناصر غير الإسلامية ، وبعد عام أفرج عن باقى المعتقلين وهم من الإخوان .

الشخصيات البارزة منهم محمد حسنين هيكل والفريق سعد الدين الشاذلى الذى فُصِل وعيّن سفيرا فى الخارج[١٢] .

شهد منتصف السبعينات السادات يتبع سياسة ذات ثلاثة اتجاهات فى المجال الإسلامى :

١ – استرضاء « مؤسسة الإسلام الرسمية » المتمركزة فى جامعة الأزهر والمساجد الحكومية الكبيرة ، وذلك لدعم تأييد القيادة الإسلامية فى مصر .

٢ – استرضاء « الإخوان » لتحييد المعارضة الأصولية واستغلال قوة الجماعة التنظيمية ضد الناصريين .

٣ – قمع الجماعات الأصولية النضالية التى تهدد أنشطتها العُنْفية النظام .

إن سياسة القمع – التى ازدادت بعد الهجوم على الكلية الفنية العسكرية فى أبريل ١٩٧٤ – استمرت حتى مايو ١٩٧٥ عندما ضرب النظام جماعة التكفير والهجرة[*] فى نفس الوقت كانت هنالك دلائل على التعاون بين النظام و« الإخوان » . فى ١٩٧٦ ، سمح السادات بصدور مجلتى « الدعوة » و« الاعتصام » الشهريتين اللتين كانتا تمثلان وجهة نظر « الإخوان » ، بل إن « الإخوان » فى انتخابات ١٩٧٦ انضموا إلى الجماعات اليسارية الأخرى لحشد أتباعها وحثهم على انتخاب الأغلبية الموالية للحكومة فى مجلس الشعب . وهذا التعاون جعل الإخوان فى موقع متخلف أثناء الاضطرابات الجماهيرية التى قادها الناصريون فى يناير ١٩٧٧ ، على الرغم من أن بعض العناصر الإسلامية شاركت فى تحطيم بعض النوادى الليلية والبارات وبيوت الدعارة المنتشرة بكثرة . وهذا التأييد المستمر للسادات قد وضع « الإخوان » فى موقف التنازل عن مذهبيتهم

---

(١٢) ر . هـ . دكمجيان ، « مصر وتركيا : الحكم العسكرى فى الخلفية » ، فى « العسكر والفلاحون والإداريون (البيروقراطيون) » تحرير : ر . كولكوفكس و ا. كوربونسكى (لندن ، جورج ألان . وأنوِن ، ١٩٨٢) ، ص ٣٧ – ٤٠ . (إ.) .

(*) أثبت عبد الرحمن أبو الخير فى كتابه « ذكرياتى مع جماعة المسلمين » أن ضرب جماعتهم كان لإرهاب التيار الإسلامى والحيلولة دون معارضة زيارتهم لإسرائيل . أما صدور مجلة « الدعوة » فيرجع إلى أن ترخيصها كان منسيا ولم تضم إلى الاتحاد الاشتراكى ضمن قرارات ١٩٦١ بتملك الدولة للصحف .

وفقدان تأييد الجماهير . والنتيجة أن عام ١٩٧٧ أتى بتباين فى المسيرة بين الطرفين ، سرعان ما زاده قوة تقارب السادات مع إسرائيل . هاجم « الإخوان » « اتفاقية السلام المصرية – الإسرائيلية وسياسة « الانفتاح » ومنظور السادات الثقافى المنحاز للغرب ، خاصة فيما يتعلق بالمرأة . بل إنها اتهمت السادات بأنه يؤيد الأقلية القبطية فى المواجهة القائمة بين المسلمين والأقباط . وأخيرا ، زاد نجاحُ الثورة الإسلامية فى إيران الإخوانَ ثقة لمتابعة هدفها فى إقامة نظام إسلامى فى مصر .

كانت مظاهرات يناير ١٩٧٧ بداية لأزمة ممتدة أمام السادات انتهت باغتياله فى أكتوبر ١٩٨١ . كان رد فعل السادات إزاء المعارضة المتزايدة لسياساته الخارجية والاقتصادية هو التركيز على متابعة الشرعية الإسلامية . قدم النظام سلسلة من مشاريع القوانين بشأن الحدود الإسلامية الخاصة بالربا والردة والسرقة والزنا والخمر ، سحب معظمها بعد معارضة الأقباط والتحريين من المسلمين[١٣] . فى مارس ١٩٨٠ أعلنت « الشريعة » المصدر الرئيسى للتشريع عن طريق استفتاء عام . كان محور سعى السادات لإحراز الشرعية هو مسلكه العلنى فى نواحى الحياة الإسلامية على الجبهة الداخلية ، والذى تزامن مع ظهوره كرئيس دولة يسعى إلى السلام بين العرب وإسرائيل . وعلى الرغم من براعة السادات الفائقة كممثل ، فإن إصرارَه على القيام بهذين الدورين المتعارضين قد برهن على أنه مهلك . حقا ، لقد كان دور السادات ومنطلقاتهما الثقافية غير قابلين للتمازج : الرئيس المسلم التقىّ فى مقابل العضو المختار ضمن منظمة زعماء الغرب والمتظاهر بالملامح الثقافية الأجنبية فى جو من الثراء الباذخ . ومع ذلك ، فقد استمر السادات – رغم التعارض الواضح بين دوريه وشخصيتيه – يعرض علنا تقواه الشخصية على جمهور شديد التشكك فى صدقه . كان السادات ، فى محاولته استرضاء التركيبة الإسلامية ، يمشى على طريقٍ خَطِرٍ سار فيه قبله زعماء

---

(١٣) بشأن هجوم الإخوان على سياسة السادات الداخلية والخارجية ، انظر ، على سبيل المثال : « الدعوة » (فبراير ١٩٧٧) : ٢ – ١٦ ، و« الاعتصام » (أبريل – مايو ١٩٨١) : ٢٨ – ٢٩ . وبشأن الموافقة على قانون حد الردة ، انظر : فيليب روشوت ، « الحمى الكبرى فى العالم الإسلامى » (باريس ، ١٩٨١) ، ص ١٤٣ – ١٤٥ . (ف.) .

مسلمون لم ينجحوا تماما . إن محور ورطة السادات هو عجزه عن إقناع الإسلاميين بالتزامه الكامل للإسلام . ومن هنا ، فإن مبادراته الإسلامية ، مهما يكن إخلاصه فيها ، كانت تبدو ناقصة بسبب سياساته الداخلية والخارجية وكذلك بسبب التشدد الأصيل فى العقيدة الأصولية . الواقع أنه لم يكن ممكنا أن يوجد طريق وسط أمام النضاليين الإسلاميين .

ومع ذلك ، استمرت أجهزة الإعلام المصرية تصف السادات بـ « الرئيس المؤمن » ، الذى مجّد الأخلاق التقليدية للقرية ومجّد الأسرة الأبوية . زعم السادات أن مصر تشكل عائلة واحدة كبيرة ، وأنه هو « كبير العائلة » الذى يجب أن يُطيع أولادُه أحكامه دونما اعتراض . ولم تلق هذه التأكيدات قبولا حسنا فى جو ظروف مصر الاجتماعية والاقتصادية[١٤] . دُعّمت مظاهر التقوى الرئاسية عن طريق ظهور الشعارات الإسلامية فى المبانى الحكومية والإعلانات الرسمية ، وفى خطب الرئيس التى كانت تستفتح بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » وتختم باقتباس من القرآن .

كان السادات ، عند من يعرفونه جيدا ، مسلما مخلصا حقا يسعى لترجمة المبادىء الأساسية لعقيدته إلى سياسات داخلية وخارجية بناءة ونافعة . تمثلت مأساة أنور السادات ، رغم نواياه الطيبة ، فى أن قطاعات كبيرة من الجماهير المصرية كانت تضمر شكوكا حول الرجل القادم من « المنوفية » . إنهم لم يستطيعوا أن ينسوا غياب السادات من موقعه المحدّد له ليلة ثورة ١٩٥٢ ، ولا أن يغضوا الطرف عن تنكره لعبد الناصر الذى حاول السادات أن يمسح تراثه السياسى . وفى أواخر السبعينات أصبحت هناك فجوة ثقافية واسعة بين السادات وشعبه . لقد أصبح السادات محل انتقاد حاد ومركز نتيجة الاهتمام الذى انهال عليه من زعماء الغرب وإعلامه كرجل دولة وصانع سلام ورجل أنيق الملبس بالإضافة إلى سياساته الوفاقية مع إسرائيل والشاه ، فضلا عن الفساد الداخلى .

---

(١٤) انظر : حسن حنفى ، سلسلة مقالات واضحة فى الوطن ابتداء من ١٩٨٢/١١/٢٠ . فى عام ١٩٨١ وعدت الحكومة ببناء حوالى ١٠٠٠ مسجد ، انظر : روشوت ، « الحمى الكبرى ... » ص ١٤٣ - ١٤٥ . (ف.) .

تمثل رد فعل النظام فى عمليات قمع انتقائى ضد الاشتراكيين والناصريين والنضاليين الإسلاميين ، ورافق ذلك تأكيد دعائى على الموضوعات الإسلامية ، مثل : الإيمان والصلابة والأصالة والصبر والمحبة والأمل والتوفيق (الإلهى) والهداية . كانت غاية الضغط الإعلامى الحكومى هى إقناع الناس بأن يرضوا بنصيبهم وأن يأملوا فى مستقبل أفضل . كان من المحال قبول هذا التوسل فى ضوء وضع أغلبية المصريين المتدهور اجتماعيا واقتصاديا . هذا الفراغ المذهبى الذى خلقه تنحية الناصرية ملأته نسبيا الأصولية الإسلامية مما جعل قيادة السادات عاجزة أمام معايير الشرعية الإسلامية السائدة . وفى ظل هذه الملابسات كان تحرك مجلس الشعب لإعلان السادات « خامس الخلفاء الراشدين » عملا سياسيا تافها وصل إلى قمة الاستخفاف بالمقدسات[١٥] . ومن المعروف أن الرئيس شجب هذه المبادرة وبّرأ نفسه من مدبّريها .

كانت الحقيقة الواضحة هى أن كثيرين من المصريين لم يعتبروا السادات « والدا » لهم وكانوا يكرهونون أن يُدْعَو « أولادَه » ، وسط جو الاحباط الناتج عن سياسات الرئيس الاقتصادية والخارجية . فى الوقت ذاته عمل الإخوان والجماعات الإسلامية الأخرى على تقوية مراكزهم فى الجامعات وبين الموظفين وفى الجيش إلى حدٍّ ما . ففى داخل الجامعة ضايق النضاليون الطلاب النصارى والأساتذة العلمانيين دونما عقاب[١٦] . يبدو أن السادات لم يدرك ، إلا فى منتصف ١٩٨١ ، قوة خطر الجماعات النضالية وذلك فى سياق الاضطرابات والمصادمات الاجتماعية بين المسلمين والنصارى . قبضت الحكومة ، فى حركة وقائية ، على ٣٠٠ شخص فى سبتمبر ١٩٨١ وفرضت إشرافها المباشر على كافة المساجد[*] . ولمّا كان معظم المحتجزين من الإسلاميين ، قام النظام – فى عملية توازن – بحبس الزعماء البارزين من الناصريين والاشتراكيين والأقباط ، ومنهم

---

(١٥) نفسه . وانظر أيضا ، حسن حنفى ، « ملاءمة البديل الإسلامى فى مصر » ، « فصلية الدراسات العربية » ٤ : ١ – ٢ (ربيع ١٩٨٢) : ٦٢ – ٦٣ . (إ.) .

(١٦) نزيه ن . م . أيوبى ، « الإحياء السياسى للإسلام : حالة مصر » ، المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ، ١٢ : ٤ (ديسمبر ١٩٨٠) : ٤٩٢ . (إ.) .

(*) المساجد فقط !!

البابا « شنوده الثالث » . وصاحبت عملية الاعتقالات تهديدات من السادات بأنه سيلقى القبض على ٥٠٠٠ آخرين من مناوئيه إذا لم يستقيموا . ولم يمض شهر واحد حتى تمّ اغتيال السادات على يد مجموعة الجهاد ، وهى جماعة إسلامية نضالية متمركزة فى الصعيد . وفى أعقاب الاغتيال نشب قتال متفرّق ، معظمه فى أسيوط بين النضاليين الإسلاميين وقوات الأمن . وقد استمرت سياسة القمع فى أيام مبارك ، على الرغم من أن الرئيس الجديد قد تجنب بوضوح أخطاء السادات بالإقلال من لفت الأنظار إليه والبدء ببعض الإصلاحات . وبعد محاكمات مطوّلة أعدم سرّا الملازم أول خالد الإسلامبولى وأربعة آخرون شاركوا فى اغتيال السادات ، وقدّم إلى المحاكمة أكثر من ثلاثمائة من أعضاء « الجهاد » . لقى قرار الرئيس مبارك بتنفيذ الإعدامات إدانة فى كل أنحاء العالم الإسلامى ، وطالبت بعض الجماعات الإسلامية باغتياله أو إزالته من الحكم(١٧) .

ويمكن تلخيص الدروس السياسية من عصر السادات كما يلى :

١ – عدم الاستهانة بإمكانيات الأصولية الإسلامية من حيث تأثيرها الواسع الانتشار ، والتزامها المذهبى وقدراتها التنظيمية .

٢ – عدم استخدام « السلاح الدينى » عن طريق استرضاء المذهبية الإسلامية ، بشكل زائد وسطحى ، بهدف تحقيق أهداف سياسية غير منسجمة مع الروح الأصولية .

٣ – اتباع سياسات خارجية وداخلية موافقة إلى حد ما مع نظام القيم الدينية والثقافية السائد ، ومتجاوبة مع حاجات الشعب الاجتماعية والاقتصادية .

٤ – إيجاد بديل إسلامى قادر على الحياة ليحل محل الأصولية النضالية ، ليكون وسيلةً للتكييف الاجتماعى ومرشدا لتطوير اقتصادى مفيد اجتماعيا ولعملية تحديث منضبطة .

---

(١٧) انظر الخطاب المباشر الموجه إلى الرئيس مبارك فى « المجتمع » (الكويت) (١٩٨٢/٥/١٩) : ٤٤ . وهى المعبّر الرسمى لجمعية الإصلاح الاجتماعى الكويتية ، كذلك أذيع أن محاولة لاغتيال مبارك وقعت فى ١٩٨٢/٤/٢٥ ؛ انظر « المجتمع » (١٩٨٢/٥/١١) .

٥ – تنفيذ التركيبة المذهبية الجديدة مع أقل قدر ممكن من فساد النخبة وقلة كفاءتها ، وذلك لمواجهة الحاجات الاجتماعية والاقتصادية للقطاعات المحرومة فى المجتمع(*) .

ثلاث جماعـات نضاليـــة

اهتزّت الحياة السياسية فى مصر خلال السبعينات بأنشطة عنف قامت بها ثلاث جماعات إسلامية : « منظمة التحرير الإسلامى » و« جماعة المسلمين » و« منظمة الجهاد » . « منظمة التحرير الإسلامى » تعرف أيضا باسم « جماعة الكلية الفنية العسكرية » كما تسمى « جماعة المسلمين » باسم « التكفير والهجرة » . أيضا تعرف « م . ت . إ » باسم « شباب محمد » على الرغم من أنه كانت هناك جماعات أصولية أخرى تعمل تحت هذا الاسم . و« جماعة الجهاد » يشار إليها أحيانا باسم « الجهاد الجديدة » . كل هذه الجماعات الثلاث ولدت فى جوّ المحنة المصرى بعد حرب ١٩٦٧ . وهذه الجماعات تعتبر ، مذهبيا وتنظيميا ، نسلا مباشرا لـ « الإخوان المسلمون » .

سيد قطـــب : الوصلة الحاسمـــة

إذا تأملنا أحداث الماضى وجدنا أن سيد قطب يمثل حلقة الوصل الأساسية بين « الإخوان » و« م . ت . إ » و« التكفير » و« الجهاد » . لقد أشرف سيد قطب ، كمذهبى نضالى ، على عملية تحوّل الجيل من أصولية « الإخوان » الضامرة إلى تطرف الشباب فى السبعينات . ويتميز دورُ سيد قطب ونفوذه المحوريّان على النضاليين الجدد بثلاث سمات : ١ – أنه مارَسَ ، كمنظّر ، تأثيرا قويا على تجديد المذهبية الإسلامية وإعادة توجيهها ؛ ٢ – أنه قدّم ، كعضو بارز

(*) واضحٌ خوف العالم غير الإسلامى من الحركة الإسلامية الأصيلة واستعداده لقبول أى بديل آخر حتى ولو كان إسلاميا ما دام مستأنسا .

فى « الإخوان » القديمة ، استمرارا تنظيميا بين « الإخوان » وفصائلها المتمّردة ؛
٣ – كذلك ، فإن تحدّيه للدولة ، كحركىّ ، وموته وَضَعا أمام النضاليين الشباب نموذجا للشهادة ليحتذوا به .

كان لقطب دور فعّال فى قيادة الإخوان إلى الظهور من جديد فى مطلع الستينيات . كانت معارضة سيد قطب مركّزة على نظام عبد الناصر ، وقد استعان على ذلك بالجناح النضالى من الإخوان داخل مصر وخارجها . كانت أنشطته التآمرية ودعوته إلى الجهاد تناقض بحدّة الإسلام الأكثر هدوءا لدى حسن الهضيبى مرشد عام « الإخوان » الذى حصر نفسه فى الوعظ والخطابة[١٨] . وقد أدى قمع الحكومة لنضاليّى « الإخوان » عام ١٩٦٦/٦٥ إلى إحداث تغييرات بعيدة المدى فى المذهبية والعمل الأصوليين . وفى بيئة الحضانة[*] فى السجن ، كان « قطب » مصدر النفوذ المذهبى المسيطر والذى أدى فى النهاية إلى تشكيل الحركة الإسلامية فى السبعينات . ولكن سيد قطب ، على الرغم من تفوقه ، فشل فى تحسين الخلافات والمعارك العنيفة بين فصائل الإخوان فى السجن[**] . ومع ذلك ، فإن تأثير سيد قطب المستمر على النضاليين الشباب ، داخل السجن وخارجه ، موجود فى كتاباته . تصور « قطب » واقع المجتمع تفاعلا « جدليا » أبديا بين المنهج الإسلامى و« الجاهلية » . ويمكن تلخيص صياغاته المذهبية كما يلى :

١ – النظام الاجتماعى والسياسى السائد فى بلاد العالم الإسلامى وغير الإسلامى المعاصر نظام « جاهلى » – يتميز بشيوع الآثام والظلم والمعاناة والجهل بالإسلام وهديه الإلهى[١٩] .

٢ – واجب المسلم الصادق أن يحيى الإسلام كى يغيّر مجتمع « الجاهلية » وذلك عن طريق الدعوة والجهاد النضالى[٢٠] .

---

(١٨) حسن إسماعيل الهضيبى ، « دعاة لا قضاة » (القاهرة ، ١٩٧٧) ، ص ٦٣ – ٦٥ .

(*) الحضانة هنا (Incubation) تعنى حضانة بذور (ميكروبات) الأوضاع التى ستظهر فيما بعد .

(**) بفيد كتابه « لماذا أعدمونى » (كتاب الشرق الأوسط ، الدار السعودية للأبحاث والتسويق) تلاشى الخلافات وزوال آثارها .

(١٩) سيد قطب ، « معالم فى الطريق » (د . ن ، ١٩٧٠) ، ص ٨ – ١٠ ، ٨٣ – ٩٦ .

(٢٠) السابق ، ص ٦٦ ــ ٨٢ . بشأن الجهاد « الماضى » (الدائم) ، انظر : سيد قطب ،

٣ – تحويل المجتمع الجاهلى إلى دولة إسلامية حقيقية هو مهمة « الطليعة » الملتزمة من المسلمين[٢١] .

٤ – الغاية النهائية للمسلمين الملتزمين هى إقامة « الحاكمية » ، أى حكم شريعة الله فى الأرض كى يزول الإثم والمعاناة والقمع[٢٢] .

تعكس أفكار سيد قطب وأسلوبه ، كداعية للفكر الأصولى ، تأثره الواضح بالمنظّرين المسلمين الأوائل . مثلا ، اتبع سيد قطب ، فى معارضته للتجريد الفلسفى وفى تأكيده على التفسير الحرفى للمبادىء الإسلامية ، السوابق التى أرساها « ابن حزم » و« ابن تيمية » وتلاميذه . كما كان حسن البنا وأبو الأعلى المودودى ، من بين كتاب القرن العشرين ، ذَوَىْ تأثير خاص فى تشكيل نظريات سيد قطب . واجهت نظريته فى « الحاكمية » – سلطان الله على الأرض – نقدا لأنها تفتقر إلى الأسس القرآنية[٢٣] . استمد قطب فكرة « الحاكمية » من فكرة أكبر هى « الألوهية » ومن مصطلحات أخرى ذات علاقة بها : « الربوبية » و« الربّانية »[٢٤] . كان سيد قطب يحاول بهذه الصيغ إحياء المذهبية الأصولية لابن تيمية وابن قيم الجوزية ، منظّرَىْ محنة القرن الرابع عشر[٢٥] . ومن هنا ، فإن مهمة سيد قطب المذهبية كانت خلق وسائل لرفع الوعى الإسلامى بهدف إقامة حاكمية الله فى الأرض . وقد كان ضروريا ، كى يصل إلى تحقيق غايته هذه ، أن يشكّل « طليعة » من المسلمين الملتزمين مُعَدَّة للقيام بالجهاد ضد المجتمع الآثم الموجود . ومن هنا كانت الحاجة إلى التمييز بين المسلمين المنتمين إلى « الطليعة » وأولئك الذين لا يزالون خارج التنظيم ، وهى

« السلام العالمى والإسلام » ، (القاهرة د . ت) ، ص ١٥١ .

(٢١) قطب ، « معالم » ، ص ٩ – ١٠ .

(٢٢) السابق ، ص ٨ ، ٢٥ ، ٣٥ .

(٢٣) انظر : نقد حسن الهضيبى ، مرشد الإخوان السابق : « دعاة لا قضاة » ، ص ٦٣ – ٦٥ .

(٢٤) سيد قطب ، « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » ، (القاهرة ، ١٩٦٥) ، ص ٤٩ . لمزيد من التفاصيل ، انظر : سيد قطب ، « فى ظلال القرآن » مج ٤ ، أجزاء ١٢ – ١٨ (بيروت ، دار الشروق ، ١٩٧٤) ، ص ٢٠١١ – ٢٠١٣ .

(٢٥) سالم البهنساوى ، « الحكم وقضية تكفير المسلم » (الكويت ، ١٩٨١) ، ص ٤٨ .

مشكلة لم يتمكن قطب من حلها حلا كاملا ، وبهذا فتح الباب لتأويل كتاباته تأويلات متباينة .

دارت الخلافات فى الواقع حول وحدة الحركة الأصولية فى مصر . عادت المناقشات إلى الماضى ، إلى هجرة النبى (ﷺ) إلى المدينة، ونيله « ولاية » من صحبوه من المسلمين الذين تميزوا عن أولئك الذين تخلفوا فى مكة . ويبدو من بعض كتابات قطب والمودودى أنهما يتحيزان لولاية الذين هاجروا[٢٦] . وهذا التفسير يمكن أن يؤخذ على أنه يعنى أن « قطبا » يعتبر أن « الطليعة » الحركية لها من الشرعية أكثر مما لسواها من المسلمين الذين يعيشون فى المجتمع « الجاهلى » . ومع ذلك ، فإن « قطبا » لم يَشُكّ صراحة فى إيمان جمهور المسلمين الموجودين فى الإطار الجاهلى والذين لا يزالون خارج الجماعات الإسلامية . ولكنه اعتبر أنه من اللازم أن يقلد المسلمون هجرة النبى (ﷺ) وذلك بفصل أنفسهم عن المجتمع الجاهلى ليكوّنوا « طليعة » قوية تكون بمثابة مقدمة للنصر النهائى : إقامة حكم الله فى الأرض .

أثارت صيغ « قطب » تأويلات متعارضة بين مريديه تمركزت حول عدة قضايا أساسية : دور « الطليعة » ، خصائص أعضائها وقيادتها ، طبيعة الانفصال عن المجتمع ، والعلاقة بين « الطليعة » والمسلمين المخلصين ممن يعيشون تحت النظام الجاهلى . وقد أنتجت الخلافات حول هذه القضايا انشقاقا بين أتباع قطب[٢٧] . آمنت مجموعة كبيرة من شباب « الإخوان » ، يقودها الشيخ « شكرى أحمد مصطفى » ، بتفسير ضيق لآراء قطب وبدأت تعزل نفسها عن المجتمع الجاهلى وأفراده ورموهم بتهمة « الكفر »[٢٨] . هذه المجموعة ، التى سمّت نفسها « جماعة المسلمين » ، وعرفت فيما بعد باسم « التكفير والهجرة » ، انضم إليها بعض أفراد « جماعة التبليغ » ، بينما كوّن آخرون جماعات مشابهة قائمة

---

(٢٦) انظر بصفة خاصة ، سيد قطب ، « فى ظلال القرآن » : ٤ – جـ ١٠ ، (د . ن ، ١٩٦٦) ، ص ٦٥ – ٦٧ .

(٢٧) البهنساوى ، الحكم ، ص ١٢٧ – ١٣٣ . وكذلك ، البهنساوى ، العربى ، يناير ١٩٨٢) .

(٢٨) عبد الرحمن أبو الخير ، « ذكرياتى مع جماعة المسلمين » ، (القاهرة ، ١٩٨٠) ، ص ١٩ .

على أساس فكرة الانفصال عن المجتمع . من بين هذه الجماعات : « جماعة الحركية » و« جماعة العزلة الشعورية » و« جماعة التكفير » بالاسكندرية . وقد شارك فى هذه المجادلات أفراد من « الجهاد » و« التحرير الإسلامى » . كلا الجماعتين رفض إصرار « شكرى مصطفى » على إقامة مجتمع من المؤمنين على نمط «أمة» النبى (ﷺ) يعيش فى عزلة تامة عن المجتمع[٢٩] . والحق أن «م. ت. إ) و« الجهاد » كانا يشاطران سيد قطب اعترافه بأن قيام نسخة من المجتمع الإسلامى الأول غير ممكن عمليا بسبب متطلبات الحياة الحديثة .

وهكذا ، أصبحت الحركة الأصولية الناشئة فى مصر فى حالة من التفرق فى مطلع السبعينات . أطلق سراح الحراس القدامى لحركة « الإخوان » من السجون ليواجهوا الناصريين واليساريين . وفى الوقت نفسه أعلن النضاليون الشباب الجهاد ضد النظام . وقد تعجلت المعركةَ « منظمةُ التحرير الإسلامى » قبل الأوان بهجومها الفاشل على الكلية الفنية العسكرية فى أبريل ١٩٧٤ . وقد دفع هذا الدولةَ إلى حملة واسعة النطاق أدت إلى القبض على عدة مئات من « م . ت . إ. » و« التكفير » وآخرين من النضاليين . مرة أخرى ، ظهر على السطح ذلك النمط من الصراع الداخلى والجدل الفكرى داخل عنابر سجن « أبو زعبل » الشهير[٣٠] . وقد بلورت هذه المعارك وجوه الاتفاق والاختلاف المهمة بين هذه الجماعات بشأن المذهبية والقيادة والتنظيم والمنهج .

« التحرير الإسلامى » و« التكفير والهجرة »

هاتان الجماعتان النضاليتان ، اللتان ظهرتا فى بيئة اجتماعية وسياسية ومذهبية مشتركة ، تعرضتا لأقدار متشابهة من قمع السلطة لهما[٣١] . ونظرا للاختلافات فى المذهبية والقيادة ، أصبحتا متنافستين . وعلى الرغم من أن هاتين الجماعتين تشتركان فى معارضة الدولة وتنظران إليها على أنها وثنية وطاغوتية ،

---

(٢٩) السابق ، ص ١٣٧ .

(٣٠) السابق ، ص ١٣٨ – ١٣٩ .

(٣١) انظر الدراسة العميقة المقارنة ، سعد الدين إبراهيم ، « تشريح ... » ، ص ٤٢٣ – ٤٥٣ . (ع.) .

فإنهما لم تتمكنا من تكوين جبهة موحدة ضد النظام . ويبدو أن طبيعة الانغلاق فى مذهبية « التكفير » وشخصية شكرى مصطفى العنيدة كان لهما دور مؤثر فى إفشال التعاون الفعال بين « التكفير » و« م . ت . إ. » و« الجهاد » والجماعات الإسلامية الأصغر .

المذهبية :

تشارك « التكفير » و« م . ت . إ. » – باعتبارهما من فصائل « الإخوان » – « البنّا » و« قطبا » فى مبادئهما الأصولية فى صيغتها المتطرفة . فهم يدعون إلى الالتزام بالأركان الخمسة للإسلام كحد أدنى لا ينتقص . كذلك ، فإن المسلم الصالح مدعو إلى الانضمام إلى مشاركة الآخرين فى خلق مجتمع صالح كما يصوره القرآن والسنة(*) . وينبنى على ذلك أن نظام الحكم المصرى يُنظر إليه على أنه فاسد وذليل للغرب وإسرائيل والاتحاد السوفيتى .

بينما ركّزت « م . ت . إ. » هجومها بصفة رئيسية على الحكومة ، فإن « التكفير » قد أدانت كلا من النظام والمجتمع كله على أساس أنهم فى حالة جاهلية(٣٢) . فى المجال الاقتصادى ، رفضت الشيوعية والاشتراكية على أنهما نظامان كفريان وغير إنسانيين . كلا الجماعتين تعتقد أن شرعية الحكومة يجب أن تقوم على أساس قدرتها على تحقيق العدالة الاجتماعية طبقا لمبدأ « العدل أساس الملك » . وهناك معايير أخرى للحكم منها اختيار المسلمين للحاكم ، والتقوى والعقل والطاعة لشرع الله . وعلى مجالس « الشورى » أن تراجع أعمال الحكام وأن تعزلهم فى حالة عدم قيامهم بواجباتهم نحو الله ونحو المجتمع المسلم . كذلك عارضت الجماعتان « العلماء » باعتبارهم موظفين يوالون النظام ، على الرغم من أن « التكفير » نظرت إليهم بعداوة أشد ونصحت أعضاءها ألا يصلوا وراءهم فى المساجد(٣٣) . وإذا كانت « التكفير » تدعو فى تشدّد إلى إعادة المجتمع النبوى كما

(*) ليس ثمة أى تطرف فى إقامة أركان الإسلام والعمل على إقامة المجتمع الإسلامى الصالح . ومعارضة ذلك هى التطرف !

(٣٢) سالم البهنساوى ، العربى (يناير ١٩٨٢) .

(٣٣) إبراهيم ، « تشريح .. » ، ص ٤٣٢ – ٤٣٥ .

كان ، فإن « م . ت . إ » يبدو أنها لا تمانع فى اقتباس بعض الأساليب الحديثة لتحقيق أهدافها . إن « التكفير » أشدّ مذهبية فى توجهها من « م . ت . إ » . زعم شكرى مصطفى ، وهو يوجه تهمة « الكفر » إلى كل فرد فى المجتمع ، أنه لا خلاص للمسلمين إلا بالانضمام إلى جماعته وأن يفارقوا – عن وعى – هذه البيئة الاجتماعية الآثمة اجتماعيا وروحيا . مؤلف هذا المبدأ الانعزالى هو « على عبده إسماعيل » ، وهو شيخ غامض من جامعة الأزهر حاول أن يصوغ مبادىء « التكفير » وأنشطتها على مثال حياة النبى (ﷺ) فى الفترة المكية الأولى[٣٤] . ففى بداية الأمر حين كان المجتمع ضعيفا يسهل القضاء عليه امتنع النبى (ﷺ) عن « الجهاد » حتى يقوى وتكثر « أمّته » عن طريق العزلة المكانية والروحية عن البيئة الكبرى الوثنية . وبالمثل ، فإن الشيخ إسماعيل يوجب على المسلمين فى المرحلة الحالية من « عهد الاستضعاف » الإسلامى أن يمارسوا « المفاصلة الشعورية » لتقوية ولائهم للإسلام من خلال منظمة « التكفير » . فى الوقت ذاته عليهم أن يكفّوا عن شن « الجهاد » حتى تكتسب الجماعة القوة الكافية[٣٥] . وهذا يجعل من الضرورى الانضمام إلى الجمعية وإعطاء الولاء الكامل لمذهبيتها وقيادتها نظرا لأن الحياة الإسلامية الحقيقية لا تتحقق إلا داخل الجماعة . فى الواقع ، يعتقد أعضاء التكفير أن كافة المجتمعات الإسلامية بعد زمن الرسول (ﷺ) والخلفاء الأربعة تتكون من كفار[٣٦] .

القيادة والتنظيم :

كانت « م . ت . إ. » تحت قيادة « صالح سرية » ، وهو فلسطينى يحمل الدكتوراه فى تعليم العلوم ، وكان عضوا فى « حزب التحرير الإسلامى » أحد فصائل الإخوان المسلمين[*] فى الأردن . انضم « سرية » ، بعد حرب ١٩٦٧ ،

---

(٣٤) البهنساوى ، الحكم ، ص ٣٤ – ٣٧ .

(٣٥) السابق ، ص ٣٦ – ٣٨ .

(٣٦) أبو الخير ، « ذكرياتى » ، ص ١٠ .

(*) « حزب التحرير » لم يكن أحد فصائل الإخوان ، ويرجع فى ذلك إلى كتاب « الجماعات الإسلامية فى ضوء الكتاب والسنة » لسليم الهلالى .

إلى مجموعات فلسطينية مختلفة واتصل بنظامى العراق وليبيا ، وقضى مدة فى السجن . وفى ١٩٧١ استقر فى مصر موظفا فى الجامعة العربية وبدأ يكوّن أسرا سرّية فى القاهرة والاسكندرية[٣٧] .

كان « شكرى مصطفى » أيضا عضوا فى « الإخوان المسلمين » . قبض عليه عام ١٩٦٥ ؛ وفى السجن نفض يده من زملائه الأقدم ومن معاركهم الداخلية[٣٨][*] . وبعد الإفراج عنه عام ١٩٧١ بدأ توسيع حركته . تلقى « شكرى » – مثل « سرية » – تعليما حديثا وحصل على بكالوريوس الزراعة . وقد قيل إن كلا من القائدين كان يتميز بشخصية شديدة الأسر وبالمعرفة بالإسلام والشجاعة والتقوى . كان « سرّية » محبوبا من أتباعه ، لكن شكرى مصطفى كان يؤثّر بعينيه النافذتين . ومن الواضح أن أسلوبى القيادة المختلفين لدى الرجلين قد انعكسا على طبيعة منظمتيهما . رَأسَ « سرّية » مجلسا تنفيذيا من اثنى عشر عضوا كانوا يتّخذون قراراتهم عن طريق الإجماع وبأسلوب ديمقراطى جيّد . قيل إن « سرّية » غُلِب على رأيه فى قراره بعدم تحدى نظام السادات أثناء فترة شعبيته بعد حرب أكتوبر ؛ ومن هنا كان الهجوم الفاشل على الكلية العسكرية . أعدم « سرّية » فى نوفمبر ١٩٧٦ . أما « مصطفى » فكان « أمير المؤمنين » المستبد الذى يقرر كافة القرارات النهاية[٣٩] . كان الأتباع يعتبرونه كأنه « المهدى » ويطيعونه بمقتضى عقد « البيعة »[٤٠] . وهكذا تمتلك « التكفير » – خلافا لـ « م . ت . إ. » – خصائص الحركة « الخلاصية » .

التكوين والعضوية :

تُجنِّد كل من الجماعتين بصفة رئيسية من بين الطلاب وخريجى الكليات

---

(٣٧) إبراهيم ، « تشريح » ، ص ٤٣٥ – ٤٣٦ .

(٣٨) البهنساوى ، العربى (يناير ١٩٨٢) .

(*) لم يذكر البهنساوى فى كتابه أن شكرى كان منتميا إلى الإخوان ، بل ذكر أنه كان ضمن شباب جماعة التبليغ .

(٣٩) إبراهيم ، « تشريح » ، ص ٤٣٧ .

(٤٠) إسرائيل أتمان ، « الحركات الإسلامية فى مصر » ، القدس الفصلية (شتاء ١٩٧٩) : ١٠١ . (إ.) .

الجدد . اعتمدت « التكفير » على روابط القرابة والصداقة ، بينما جنّدت « م . ت . إ. » من المصلين الشباب ، خاصة من المساجد الأهلية العديدة . معظم أعضاء « م . ت . إ. » كانوا من القاهرة والاسكندرية والدلتا ، بينما جندت « التكفير » غالبا من الصعيد . وهناك قسم هام من المجنّدين كانوا من الوافدين الجدد إلى المدن الكبيرة من مجتمعات المدن الصغيرة والريف ، من أبناء الطبقة الوسطى والوسطى – الدنيا . كانوا فى المتوسط من المتعلمين تعليما جيدا ، خاصة فى المجالات العلمية والتقنية ، ومشبّعين بعقيدة راسخة وإحساس بالرسالة واستعداد للاستشهاد[٤١] . انفردت « التكفير » فى عدة جوانب . فقد هيأت لأعضائها بيئة متكاملة من النشاط ، فكانوا دائما مشغولين بالصلوات والدراسة والرياضة والدعوة والعمل فى مشروعات جماعة « التكفير » . وهكذا عزل العضو عن المجتمع وأصبح معتمدا على الجماعة فى كل احتياجاته . ومن ينحرف من الأعضاء يفصل ويتعرض لعقاب بدنى[٤٢] . وإذا ترك عضوٌ الجماعةَ اعتبر « كافرا » حيث أنه لا مجال للخلاص خارج الجماعة[٤٣] .

الخطط والأساليب (الاستراتيجيات والتكتيكات) :

تختلف « م . ت . إ. » فى مخططاتها السياسية اختلافا واضحا عن كل من « الإخوان » و« التكفير » . أخذت « الإخوان » بخطة تدرجية لإقامة نظام إسلامى ، بينما كان الهدف المباشر لـ « م . ت . إ. » هو الاستيلاء على السلطة . تغلغلت فى الشرطة والجيش وكان أعضاؤها – باستثناء « سرّيّة » – متوجهين نفسيا للقيام بانقلاب مبكر . وعلى النقيض من ذلك ، تبع « مصطفى » خطة طويلة المدى تقوم على بناء نواة قوية من المؤمنين على مثال المجتمع النبوى . ولن تقوم الجماعة بجهاد السلطة إلا حين يبلغ أعضاء أُسَرها عددا كافيا للقيام بتحدّ حقيقى . وقد أحبطت هذه الخطة حين بدأت قوات الأمن إلقاء القبض على

---

(٤١) إبراهيم ، « تشريح ، ص ٤٣٦ – ٤٣٩ .

(٤٢) السابق ، ص ٤٤١ .

(٤٣) أحمد كمال أبو المجد ، « التطرف غير الجريمة والتشخيص الدقيق مطلوب » (العربى ، ١٩٨٢) : ٣٦ – ٤٠ ؛ وأبو الخير « ذكرياتى » ، ص ٩ – ١٣ .

أعضاء من « التكفير » فى أعقاب قمع « م . ت . إ. » . اتهمت الحكومة جماعة « التكفير » بخطف الشيخ حسين الذهبى وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السابق وقتله بعد المطالبة بالإفراج عن أعضائها المسجونين . وبعد قتال بين النضاليين وقوات الأمن تم القبض على ٤٠٠ عضو وأعدم خمسة من الزعماء فى مارس ١٩٧٨ . ثم انتشرت الحالة من جديد بينما كانت وسائل الإعلام تَصِمُ منظمة « التفكير » بأنهم « خوارج » القرن العشرين[٤٤] . وتقول التقارير إن كلا من « التكفير » و« م . ت . إ. » نشطة فى السر ، على الرغم من القمع ، وقد شجعهما نجاح الثورة الإيرانية . ويبدو أن هاتين الجماعتين وغيرهما من الجماعات الإسلامية تعتبر الثورة الإيرانية كنموذج قابل للتقليد مع تغيير فى الخطط من أجل إحداث انتفاضات شعبية فى الجامعات وفى الشوارع .

منظمـــة الجهـــاد

انكشفت « منظمة الجهاد » أول مرة عام ١٩٧٨ نتيجة تورطها فى نشاطات معادية للأقباط . لكن لم تظهر قدرتها الكاملة إلا عند اغتيال السادات . تتركز القوة التنظيمية لهذه الجماعة فى أسيوط بالصعيد ، حيث اشتبك أعضاؤها مع قوات الأمن فى قتال حاد لعدة أيام عقب اغتيال السادات . وفى الشهور التالية ألقى القبض على ٣٠٠٠ من الأصوليين ينتمى معظمهم إلى « الجهاد » و« التكفير والهجرة » .

كانت « الجهاد » – خلافا للتكفير – نزاعة إلى التغلغل فى القوات المسلحة وقوات الأمن وغيرهما من المؤسسات الحكومية ، وليس إلى اعتزال المجتمع. ومن هذه الناحية تكون « الجهاد » أخطر من « التكفير » . زد على هذا أن قيادة « الجهاد » جماعية وليست قيادة فرد ذى شخصية آسرة مثل « شكرى مصطفى » و« سرّيّة » . وهذه الخاصية قد أعطت الجهاد مرونة فى اتخاذ القرارات وفى تنفيذها . تتكون قيادة « تنظيم » « الجهاد » ، بنيويا ، من « جهاز القيادة »

---

(٤٤) أبو الخير ، « ذكرياتى » ، ص ٦١ ؛ والمصور (١٩٨٤/٥/٤) : ٢٠ – ٢٥ .

و« جهاز التقييم » . ومهمة « جهاز القيادة » الإدارة العامة والتخطيط ووضع السياسات . يضم « مجلس شورى » من عشرة أعضاء يرأسه الشيخ عمر عبد الرحمن ، أستاذ كفيف فى كلية أصول الدين فى أسيوط ، وهوالذى يصدر الفتاوى على أساس الشريعة الإسلامية والسوابق التاريخية ليضفى الشرعية على سياسات « الجهاد » وأعمالها . وعلى هذا لا يمكن لجهاز القيادة أن يتخذ قرارا بشأن الأهداف المحددة لعمل إرهابى إلا بعد أخذ « موافقة » من « المجلس » لضمان قانونية العمل ومشروعيته . أما الإدارة الفعلية للمنظمة فقد وكلت إلى جهاز التقييم المسؤول عن توجيه ثلاثة أجهزة : يقوم الأول بالدعوة والتجنيد والبحث وتطبيق القوانين الإسلامية . ويقدّم الثانى الدعم اللازم للحركة فى مجال التقنيات والهندسة وتدبير الأسلحة والاستخبارات وغيرها من المهمات المتخصصة مثل طباعة نشرات الدعوة وتزوير الأختام والوثائق الحكومية والنقل والمتفجرات . أما الثالث فهو جهاز المقاومة ومهمته التدريب على فنون القتال والرماية والإسعافات الطبّية وصنع الأسلحة (انظر : شكل – ٥) . كذلك ، يبعث جهاز المقاومة بمبعوثيه للحصول على التأييد والدعم المالى من الأعضاء المقيمين فى الخارج كما يشرف على شبكة الاتصالات فى الداخل . يعمل أعضاء المنظمة كأجزاء من عدد غير معلوم من « المجموعات » و« العناقيد » المنتشرة داخل المجتمع الأكبر . وكل عنقود ثورى مغلق على نفسه وشبه مستقل إداريا . فإذا قطع عنقود من المجموعة الرئيسية فإن بقية العناقيد تبقى غير مكشوفة بسهولة لأجهزة الأمن[٤٥] .

---

(٤٥) من أجل التفاصيل ، انظر : الجهاد (١٩٨٢/١٢/٣١) : ٢٢ ؛ محمد هيكل : « خريف الغضب » (إ.) (لندن ، أندريه دويتش ، ١٩٨٣) ، ص ٢٤٢ – ٢٥٥ . وانظر كذلك : سلسلة المقالات العميقة بقلم حسن حنفى ، « الحركات المعاصرة الإسلامية » ، الوطن (١١/٢٠ – ١٩٨٢/١٢/١٢) .

(شكل – ٥) : الهيكل العام لمنظمة الجهاد

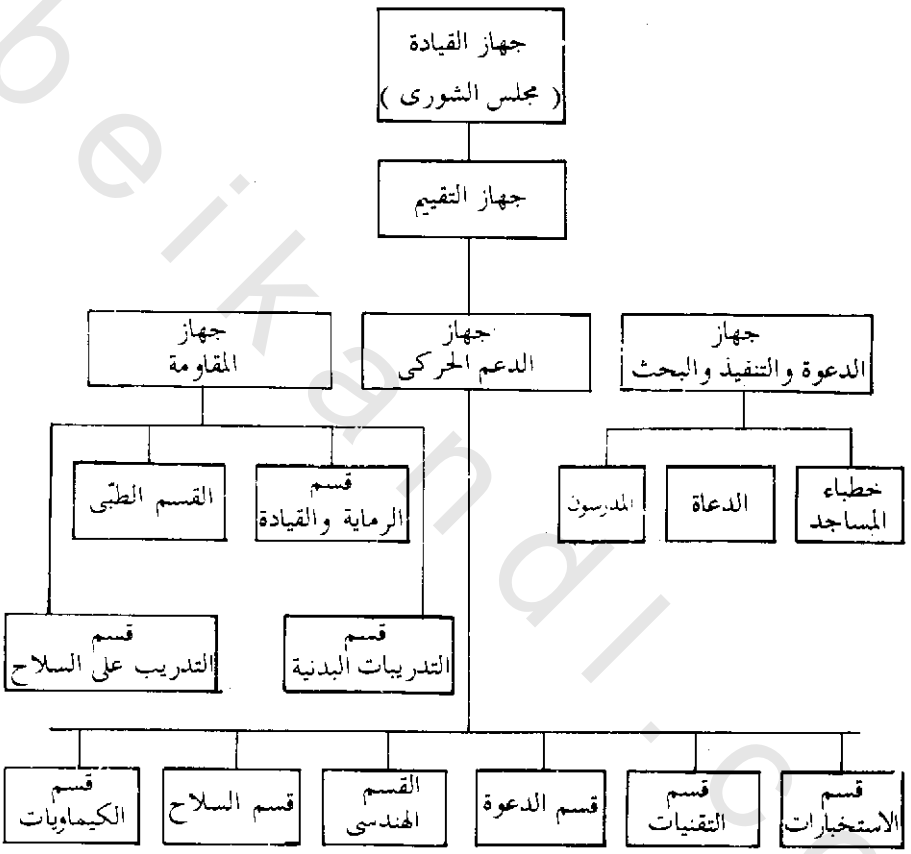

نقلا عن « الجهاد » (طهران) ، ديسمبر ٣١ ، ١٩٨٢ ، ص ١٥٠ .

---

(٤٥) من أجل التفاصيل ، انظر : الجهاد (١٩٨٢/١٢/٣١) : ٢٢ ؛ محمد هيكل « خريف الغضب » (٠١) (لندن) أندريه دويتش ، ١٩٨٣) ، ص ٥٤٢ – ٥٥ . وانظر كذلك سلسلة المقالات العميقة بقلم حسن حنفى « الحركات المعاصرة الإسلامية » الوطن (١١/٢٠ – ١٩٨٢/١٢/١٩م) .

من هذا البناء التنظيمى للجهاد كانت توجد صور مماثلة فى محافظات المنيا وسوهاج وقنا . وكانت هناك مظلة تنظيمية تربط جميع تنظيمات المحافظات هى « مجلس الشورى الأعلى » . يعكس نظام « الجهاد » – على المستوى النظرى – مبدأ « لينين » عن « المركزية الديمقراطية »[٤٦] . أما على مستوى الممارسة ، فإن عملياته كانت مرنة لا مركزية . المجموعة التى اغتالت السادات كان مسؤولها المذهبى هو محمد عبد السلام فرج ، والعسكرى الملازم أول عبود عبد اللطيف حسن الزمر الذى كان المسؤول عن العمليات . وكان فرج والزمر – كمسؤولين عن الجانبين المذهبى والعسكرى – مسؤولين أيضا عن تنفيذ قرارات مجلس الشورى التابعين له . كانت فتوى الشيخ عبد الرحمن بالحكم على السادات بالكفر غير صريحة فى صياغتها ، لكن الحكم الجماعى لمجلس الشورى بقتل السادات انتصر[٤٧] . بدأ فرج والزمر فى اجتماع عنقودى فى يناير أو فبراير ١٩٨١ العملية التى انتهت بقتل السادات على يد الملازم أول خالد الاسلامبولى وشريكيه . درس فرج والزمر عدة خطط للاغتيال على ضوء الاحتمال الراجح جدا أن السادات قد ينجو من الاغتيال . ولم يعتبر « العنقود » الأمر ملائما إلا بعد أن اختير الملازم الإسلامبولى للاشتراك فى العرض العسكرى ، فتابعوا دراسة الخطة . كان كتاب « سبع رسائل » لـ « جُهَيمان العتيبى » المصدر الأساسى لإلهام الإسلامبولى ، ومن المحتمل أنه وصله عن طريق أخيه محمد الذى حضر استيلاء « الإخوان » على المسجد الحرام فى مكة . ولقد قرأ الإسلامبولى كتبا لابن تيمية وابن كثير[٤٨] .

ظهرت أهداف « الجهاد » المحدّدة ودوافعهم المذهبية أثناء المحاكمة . قدم الملازم الإسلامبولى ثلاثة أسباب لقرار قتل السادات : ١ – قوانين مصر الحالية غير مطابقة للشريعة الإسلامية ، وهذا جرّ على المسلمين البلايا . ٢ – سلام السادات مع إسرائيل . ٣ – القبض على الأصوليين الإسلاميين فى سبتمبر ١٩٨١ واضطهادهم وإهانتهم . واضح أن المغتالين كانوا منفعلين بالأحوال

---

(٤٦) لاحظ هذا التشابه نزيه ن . م . أيوبى فى « الحركات الإسلامية النضالية » ، **مجلة الشؤون الدولية** ٣٦ : ٢ (خريف/شتاء ٨٢ – ١٩٨٣) : ٢٧٩ . (إ.) .

(٤٧) حنفى ، الوطن (١٩٨٢/١٢/٨) .

(٤٨) هيكل ، « خريف » ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧ ، ٢٤٩ .

الاجتماعية الاقتصادية السائدة وباتفاقيات « كامب ديفيد » والقهر الذى تمارسه الدولة[٤٩] . هذه الدوافع تحولت إلى إطار مذهبىّ قدّمه « فرج » ووضع خطوطه العريضة فى « الجهاد : الفريضة الغائبة .

ويمكن تلخيصه فى إحدى عشرة قضية :

١ – واجب كل مسلم أن يبذل جهده من أجل الأمة الإسلامية . وهذا واجب فرضه الله وشريعته . وحيث أن قوانين البلاد الإسلامية هى قوانين الكفار ، فواجب المسلم الحق أن يعلن « الجهاد » ضد حكامها الذين تربوا فى الغرب على أيدى النصارى والشيوعيين والصهاينة .

٢ – إنّ الحكام المسلمين أو المجموعات المسلمة ، الذين يرفضون شريعة الله ، مرتدّون وإن زعموا أنهم مسلمون . وبمعنى آخر ، يجب أن يكون هناك دائما ما يثبت « إسلامية » الشخص ، لأن الفرد العاصى يفقد وضعه كمسلم إن أصرّ على معصيته . والكفر هو أكبر المعاصى .

٣ – تعاون المسلم مع الحاكم الكافر الذى يدّعى الإسلام معصية . وعقوبة حاكم كهذا هى القتل حتى ولو كان عاجزا عن الدفاع عن نفسه . وعلى المسلمين الحق أن يجتنبوا الوظائف الحكومية والخدمة العسكرية[*] .

٤ – الجهاد الدائم ضدّ الدولة الكافرة هو أعظم الفرائض ، وهو الحل الوحيد أمام كافة المسلمين الصادقين الذين يرغبون فى تحطيم المجتمع الجاهلى وإحياء الإسلام .

٥ – الجهاد بالسيف هو الضرب الوحيد المقبول من الجهاد .

٦ – الجهاد عن طريق الوسائل السلمية من خطابة وأحزاب إسلامية أو « هجرة » إنما هو جبن وغباء . ولن ينتصر الإسلام إلا بقوة السلاح كما حدث فى الماضى حين تمكنت مجموعة صغيرة من المسلمين من الصفّ

---

(٤٩) السابق ، ص ٢٤٦ .

(*) كيف والزمر والإسلامبولى كانا من رجال الجيش ؟!

الجادّ من نشر الرسالة عن طريق الغزو . فعلى المسلمين الصادقين الانخراط فى الجهاد ، مهما قلّ عددهم .

٧ – يبدأ الجهاد بكفار الداخل (الدولة المصرية) ، ثم كفار الخارج (العالم غير الإسلامى) .

٨ – يمكن لكل مسلم أن يدرس الجهاد دون حاجة إلى جهد كبير أو تعليم . فليس نقص العلم بعذر للامتناع عن الجهاد .

٩ – يجب أن تكون القيادة فى الإسلام من حق الأقوى من المؤمنين وأكثرهم تقوى لله . يجب أن يختار القائد جماعيا ، وحين يتمّ اختياره تجب طاعته . أما العالم المتغطرس المتعجرف فيجب ألا يكون قائدا .

١٠ – القعود عن الجهاد هو السبب الرئيسى لوضع المسلمين المؤسف اليوم وذلتهم وهوانهم وازدرائهم وتفرقهم .

١١ – حدد الله خمس مراحل فى التاريخ الإسلامى :

(أ) الأمة فى العصر النبوى .

(ب) الأمة فى عصر الراشدين .

(جـ) الأمة فى عصر المملكات .

(د) الأمة فى عصر الدكتاتوريين .

(هـ) إسلام عصرنا حيث تزول الدكتاتورية والطغيان ، وتحكم الأمة طبقا لنظام مشابه لمجتمع النبى (ﷺ) ؛ وسوف يسود السلام(٥٠) .

كتاب « فرج » يتميز بالوضوح وجودة التدليل ، وهو كتاب نضالى جرىء يجعل اللجوء إلى استخدام العنف هو الركن السادس من الإسلام بناء على تأويلات قرآنية ووقائع تاريخية وعلى كتاب ابن حزم وابن تيمية والقاضى عياض

---

(٥٠) محمد عبد السلام فرج ، « الفريضة الغائبة » (د . ن ، د . ت) .

وابن القيم وابن كثير والنووى وسيد قطب وآخرين . ليس لـ « الجهاد » – على عكس « التكفير » – قيادة فردية ، مثل شكرى مصطفى ، توجب على أتباعها الولاء الكامل لها . ومن هنا ، لم تكن مذهبية « الجهاد » « خلاصية » كمذهبية « التكفير » . لم يدّع قائد « الجهاد » أنه « المهدى » فى المستقبل . كذلك لا تشارك « الجهاد » « التكفير » فى فكرة الانسحاب من المجتمع وتأجيل الجهاد إلى وقت أكثر ملاءمة . بل وضعت ، بدلا من ذلك ، مبدأ « الالتزام » بالإسلام الذى لا يمكن تحقيقه ، فى منطقه النهائى ، إلا عن طريق الجهاد المستمر . وفشل المسلمين وقادتهم فى القيام بهذه الفروض الإسلامية يجعلهم كفارا ويقضى على شرعيّتهم ويقودهم إلى الهلاك ، وقد سمّى « فرج » ، كمثال واقعى ، قائدا واحدا ، هو أنور السادات(*)(٥١) .

الأصولية المصرية ورد فعل الدولـــة

إن التقييم الشامل للأصولية الإسلامية فى مصر المعاصرة يشير إلى عزمةٍ على العودة إلى الجذور الإسلامية بين قطاع مهم من سكانها . فالمظاهر الإسلامية واضحة فى المجتمع المصرى كله ، على الرغم من أن « الحركة النضالية » تستمد معظم مؤيديها من الطبقات الوسطى والوسطى – الدنيا التى تتميز باستعداد خاص لإجابة « الدعوة » فى ضوء مستواهم التعليمى ووعيهم الاجتماعى والإحباط الاقتصادى .

الجماعات الصغيرة :

لا تزال الأصولية المعاصرة تتغذى ، فى صورتها التنظيمية ، على التراث المذهبى والروحى والتنظيمى للإخوان المسلمين التى أسّسها البنا . لكن تأثير « الإخوان » التنظيمى قد تراجع حين تكاثرت الجماعات الإسلامية . وإذا كانت جماعات مثل « التكفير » و« الجهاد » و« م . ت . إ. » التى انبثقت فى مطلع

(*) المعروف عن « الجهاد » أنهم لا يقولون بكفر المجتمع ، حتى السادات لم يقطعوا بكفره كما أشار المؤلف آنفا .

(٥١) لسبب غير معروف ، ظهر اسم السادات فى الترجمة الانجليزية فقط ، انظر : « الجهاد : الفريضة الغائبة » (كندا ، د . ت) ، ص ١٩ . (إ.) .

السبعينات كانت نسلا مباشرا لـ « الإخوان » ، فإن ارتباط الجماعات الأحدث منها بـ « الإخوان » يبدو ضعيفا . ويُعرِّف (ملحق – ١) بتسع وعشرين جماعة إسلامية مصرية . وهى تتراوح ما بين جماعات جماهيرية مثل « الإخوان المسلمين » شبه العلنية ، إلى أخرى متوسطة الحجم مثل « التكفير » و« م . ت إ. » و« الجهاد » ومجموعة كبيرة من جماعات صغيرة مثل « الفرماوية » و« جماعة الأهرام » و« جنود الله » و« جماعة المفاصلة الشعورية »(*) و« جنود الرحمن » و« جماعة المسلمين للتكفير » و« المكفراتية » و« قف وتبين » و« الجماعة الحركية » و« القطبيين » . معظم هذه الجماعات الأخيرة يمكن اعتبارها « نضالية » تعمل سرا . لكن ليس من بينها من يمتلك حجما أو قوة للعنف مثل ما لدى « التكفير » أو « الجهاد » . ولكن هذا لا يعنى أن تلك الجماعات الصغيرة غير قادرة على القيام بحركات تمرد محدودة أو بمحاولات اغتيال ضد قادة الحكومة . يوجد فى مصر جماعات إسلامية نضالية وغير نضالية أكثر من التسع والعشرين المذكورة هنا . ويبدو أن هناك جماعات جديدة تتكوّن باستمرار كلما زادت حدة الإحباط ، خاصة بين الشباب والعاطلين . وظهور هذه الجماعات أو اختفاؤها يرتبط باكتشاف الحكومة لها ثم القيام بقمعها أو احتوائها ، فتعود إلى النطاق السرى الواسع فى مصر . وتفيد التقارير أن السلطات المصرية قد وصلت بالعدد الكلى للجماعات الإسلامية إلى ٢٩ ، على حين قدرت دورية أصولية فى الكويت عددها بستين(٥٢) .

من الممكن تحديد نوع الجماعات الإسلامية على أساس جغرافى . فالنوع الأول هو الجماعات الموجودة فى المدن الصغيرة فى الصعيد وفى الدلتا ، وهذه تجنّد عناصرها من المتعلمين وأنصاف المتعلمين ، ومنهم أبناء موظفى المحافظات وطلاب الكليات والعمال والفلاحين من الطبقة الوسطى – الدنيا . ويبدو على هذه الجماعات شيء من الفطرية (Primitivism) نظرا لبعدهم عن المراكز الحضارية والتأثيرات الأجنبية . وعلى هذا ، فهم لا يصبحون مصدر خطر

(*) كتبها المؤلف « المُنازِلة الشعورية » (Munazilah) وأظن ذلك تحريفا للمفاصلة .

(٥٢) انظر : « المجتمع » (١٣/١٠/١٩٨٢) : ٢١ ؛ وأيضا : « المجتمع » (١٤/١٢/١٩٨٢) .

سياسى إلا حين تقرر قيادتهم أن تستقر فى العاصمة ، كما حدث فى حالة شكرى مصطفى . أما النوع الثانى من الجماعات النضالية فيوجد فى المدن الكبيرة ، خاصة فى الأحياء المزدحمة فى القاهرة . تتكون جماعات المدن هذه من الطلاب والخريجين العاطلين والعمال والجنود وصغار الضباط . معظم هذه العناصر الاجتماعية ليس لها جذور عائلية فى المدن وفرصهم محدودة فى الحصول على موقع جيد فى المجتمع يتناسب مع خبرتهم وتطلعاتهم . حاول بعضهم أن « يوجده » فى القطاع الخاص الذى يتمتع بالحرية فى مصر ، ولكن لم ينجحوا ، على حين اغتنى أصدقاؤهم وأقرباؤهم بطرق فاسدة . زد على هذا أن كثيرين ممن جُنِّدوا من المحافظات هم من مناطق متخلّفة مثل الصعيد ، حيث يواجهون منافسة من الأقلية القبطية الكبيرة .

وهناك نوع آخر من الجماعات الإسلامية يتكون من الأصدقاء والمعارف فى إطار الحى الواحد الذين يجمعهم مسجد المنطقة . مثل هذه المجموعات قد تبدأ على شكل جمعيات خيرية غير متماسكة ، أو حلقات قرآنية تجتمع دوريّا لتدارس الكتاب الكريم بالإضافة إلى قضايا الحى والمجتمع . وفى الوقت المناسب ، تتحول هذه الجماعات إلى النضالية استجابة لمحنة تحدث نتيجة الاستفزاز الحكومى أو الظلم أو القهر أو لمبادرة فى السياسة الخارجية . وحيث أن القانون يمنع الاجتماعات العامة ، فإن هذه الجماعات تلجأ إلى المساجد ، خاصة فى صلاة الفجر والعشاء . بعد إلقاء الخطبة (الموعظة)(*) يجلس المؤمنون فى حلقات على أرض المسجد(*) ويبدأون المناقشات . ومناقشات هذه المجموعات ، التى تتم غالبا بصوت خفيض ، يمكن أن تتناول توزيع المهام التى سيقوم بها كل فرد ضمن جمعيات الخدمة الذاتية النشطة فى الحى – من توصيل الأغذية إلى الأسر الفقيرة وزيارة الطبيب للمرضى أو قيام المحامى بالحضور عن موكله . أو أن تناقش المجموعات أمورا سياسية ، وتخطط للقيام بمظاهرات شعبية وحتى للعنف ، مثل

(*) ليس هناك خطبة ولا موعظة فى الفجر أو العشاء ، مما يدل على جهل المؤلف ببديهيات الإسلام ، ولعله قاس صلاة المسلمين على صلاة النصارى ، ويرجّح هذا حرصه على ذكر الجلوس على أرض المسجد وهو ما يخالف حال النصارى فى الكنائس إذ يجلسون على المقاعد ، ويبدو أن مجمل تصوراته عن المسجد وروّاده وأنشطتهم غير دقيقة ولا واقعية .

خلايا المنظمات الكبيرة . ويتم التنسيق بين شبكات المساجد المختلفة عن طريق قيام ممثلين من الخلايا بالطواف على المساجد طول اليوم وحضور الصلوات فى مساجد مختلفة داخل الحى وخارجه . وهذا الأسلوب للاتصال بين الخلايا يخلق شبكة تغطى أحياء كثيرة يمكن تحريكها بفاعلية فى زمن وجيز نسبيا . لقد برهنت جماعات المسجد بالفعل على فاعليتها كجمعيات للخدمة الذاتية التى تنظر إليها الحكومة بحذر فى ضوء احتمال استخدام إمكانياتها المذهبية والتنظيمية فى أعمال التمرّد . ومع ذلك فإن الحكومة نفسها يبدو أنه تعوزها الوسائل أو الرغبة فى القيام بهذه الخدمات الاجتماعية التى بات الناس فى أمسّ الحاجة إليها(٥٣) .

الأصوليـــة فى الجيـــش

ظهرت بوضوح شديد مظاهر الانبعاث الدينى فى الجيش المصرى ، خاصة بين الرتب العليا من ضباط الصف والرتب الدنيا والوسطى من ضباط الأسلحة . كما أصبح الحماس الدينى واضحا بين طلاب الكليات العسكرية . والمثال على ذلك ، الكلية الجوية ، حيث تتجمع مجموعات كبيرة من الطلاب فى أوقات الترفيه ليقوموا بالصلاة وتدارس الكتابات الدينية بدلا من مشاهدة الأفلام والمباريات . ومن المعروف عن الضباط الآمرين فى الصفوف المتقدمة أنهم يبذلون جهدهم لمجاملة هذه المظاهر الأصولية على الرغم من وجود بعض حالات الخروج على الطاعة . وهذه المجاملة يستدعيها الخوف من أن أى ردّ فعل تأديبى تجاه الممارسات الإسلامية ربما يؤدى إلى إطلاق استخفاف بالالتزام العسكرى أو حتى إلى عصيان . ومن الضرورى فى هذا الصدد التأكيد على المشاعر السلبية لدى الضباط الأصوليين والناصريين تجاه القيادة المصرية العليا ، وبخاصة المشير عبد الحليم أبو غزالة . إن عمله كملحق عسكرى فى واشنطن ثم توليه وزارة الدفاع عقب حادث موت الفريق « بدوى » غير المتوقع ، قد جعلا « أبا غزالة » موضع اتهام من قبل الناصريين والإسلاميين .

---

(٥٣) من هذه الجمعيات الذاتية : « الجمعية الشرعية » و« أنصار السنة المحمدية » و« جماعة الهداية » و« الوعظ والإرشاد » و« الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

لا يمكن أن يكون هناك شك فى أن للجماعات الإسلامية أعضاء ومتعاطفين فى الجيش وحتى فى قوات الأمن[٥٤] . وبعد اغتيال السادات تمت عمليات تطهير فى الجيش لأن اثنين من المنفّذين الرئيسيين – الإسلامبولى والزمر – كانا من ضباط الجيش . ومن المحال منع التأثيرات الإسلامية من الوصول إلى الجيش ما دام جزءا من المجتمع . فالجماعات الإسلامية كثيرا ما تقوم بالدعوة والتجنيد بين الأقرباء فى نطاق العائلات الكبيرة الممتدة التى لا تخلو من وجود بعض أعضائها يعملون فى القوات المسلحة . .

الانفتـــاح : المحرك الخطيـــر

كثيرا ما أشير إلى أن المحرّك الأول للنضالية الإسلامية إنما كان سوء توزيع الدخل نتيجة لسياسة الرئيس السادات فى الانفتاح الاقتصادى . والأدلة المتوفرة تشير إلى وجود فجوة فى الدخل بين الأغنياء والفقراء . وهذا واضح فى جدول – ٥ الذى يمثل تجميعا لبيانات مقارنة من سبعة مصادر مختلفة . فى ٦٤ – ١٩٦٥ كان أغنى ٥٪ من الملّاك المصريين يحصلون على ١٩,٢٪ من الدخل ، بينما ازداد نصيبهم فى ١٩٧٩ إلى ٢٢٪ . وفى الفترة نفسها تزايد دخل أفقر ٢٠٪ بنسبة ضئيلة ٠,٥٪ . أصبحت الفجوة فى توزيع الدخل أكثر وضوحا حين نقارن أرقام ٦٤ – ١٩٦٥ فى عهد اشتراكية عبد الناصر بأرقام ١٩٧٦ عندما كان الانفتاح على أشده . فى هذه الإحدى عشرة سنة انخفض دخل الـ ٦٠٪ الأشد فقرا من السكان بشكل حادّ من ٢٨,٧٪ إلى ١٩,٩٣٪ . والـ ٣٠٪ الوسطى انخفض دخلهم بنحو ٥٠٪ ، من ٤٠,٢٪ إلى ٢١,٥٢٪ . ثمة نتيجة أخرى مهمة على هذا المستوى دلّت عليها أرقام (جدول – ٥) هى الثراء المتزايد للطبقات العليا فى عهد الانفتاح : فقد تزايد دخل أغنى ١٠٪ بشكل مفاجىء من ٣١,١٪ فى

---

(٥٤) انظر : أبو خالد (اسم قلمى) ، « الحركة الإسلامية ونظام حسنى مبارك » ، المجتمع (١٣/١٠/١٩٨٢) .

٦٤ – ١٩٦٥ إلى ٥٨,٥٥٪ عام ١٩٧٦ ، أى تضاعفت تقريبا ثروة النخبة الاقتصادية فى مصر .

وعلى الرغم من النقص فى بيانات توزيع الدخل ، فمن الواضح أن الاتجاه يسير نحو تعاظم التباين فى الدخل واحتمال الصراع بين الطبقات . وبالنسبة للاستقرار السياسى ، فإن أعظم ما يسبب الاضطراب من التطورات هو التناقص الملموس فى دُخول الطبقة الوسطى وطبقة الـ ٦٠٪ الأشد فقرا من السكان . وليس من قبيل المصادفة أن هذه الطبقات تمثل أكبر مصدر لمن يجتذبهم الحركيون الإسلاميون . فالمشاعر القوية بسبب الحرمان النسبى تولّد عداءً تجاه النظام وحلفائه فى القطاع الخاص من ذوى التوجه الغربى ممن انتفعوا بسياسات السادات . بينما وجدت عناصر الطبقة الوسطى – الدنيا أنه من الصعب أن تجد لها مدخلا إلى الطبقة الوسطى ، فإن كثيرين من أعضاء هذه الطبقة قد فقدوا بشكل متزايد مكانتهم الاقتصادية وتراجعوا إلى الطبقة الوسطى الدنيا . وليس هناك أى دليل على أن هذه الأنماط قد انعكست فى السنوات الأخيرة .

جدول – ٥ : توزيع الدخـــل

الملاك	١٩٦٠	١٩٦٥/٦٤	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٩
أعلى ٥٠٪	*١٧,٥ (ريفيون)	**١٩,٢	—	××٢٠,—	—	*٢٢,٠
أعلى ١٠٪	—	**٣١,٩	—	—	××٢٨,٥٥	—
الوسطى ٣٠٪	—	**٤٠,٢	—	—	××٢١,٥٢	—
أدنى ٦٠٪	—	××٢٨,٧	—	—	××١٩,٩٣	—
أدنى ٤٠٪	—	**١٤,١	—	××١٣,٩		
—	—					
أدنى ٢٠٪	* ٦,٦ (ريفيون)	**٤,٦	—	×× ٥,٢	—	* ٥,١

ردود فعـــل الدولـــة

من المعتاد أن تشير السلطات المصرية وأجهزة الإعلام إلى الشباب الإسلامى المتطرف باسم «الجيل الضائع». وهذا، من حيث الأساس، وصف صحيح للواقع حيث أن الحكومة المصرية قد فشلت فى تحقيق التكييف الاجتماعى المناسب لعدد كبير من الشباب المثالى فى فترة ما بعد عبد الناصر . لكن يبدو أن وصف « الجيل الضائع » لا يقتصر على الشباب ، بل يشمل أيضا الكبار والقطاعات الأكثر استقرارا ، كالعمال وأصحاب المحلات وضباط الجيش والشرطة والمهندسين والأساتذة والأطباء ، وحتى ملاك الأراضى . وقد وَضُح ذلك جزئيا فى التقارير المنشورة عن ٣٠٣ من أعضاء الجهاد قبض عليهم قبل اغتيال السادات ، وهى تتعلّق بخلفياتهم الوظيفية . ويمثل المقبوض عليهم قطاعا عرضيا فى المجتمع المصرى(٥٥) .

(*) World Tables, Washington, D.C., The World Bank, 1980, P. 463.

(**) Shail Jain, Size Distribution of Income (Woshington, D.C.: IBRD, 1975) Table 21.

×× World Bank, World Economic and Social indicators, July 1978;M.S. Ahluwalia, N.G. Carter, and H.B. Chenery, Growth and Poverty in Developing Countries, World Bank, 1978; G.Sheehan and M.Hopkins, Basic Needs Performance,ILO,1978.

See R.Eckaus and A.Mohie- Eldin, Consequences of Changes in Subsidy Policy (Cairo:DRTPS, Cairo University, 1980). See also R.Eckaus, D.Mackarthy and A.Mohie-Eldin, General Equilibrium Policy Models for Egypt (Cairo, Cairo University/MIT Technology Adaptation Program, 1978).

(٥٥) الأخبار (١٩٨٢/٥/٩) .

طلاب فى المعاهد والجامعات	١١٢
عمّـــال	٤١
خريجو المعاهد والجامعات	٣١
العاملون والإداريـون	٢٦
هاربون من القانـون	٢١
طلاب فى المرحلة الثانوية	١٧
ضباط جيش وشرطة واستخبارات	١١
رجال أعمال وأصحاب محـلات	١٠
مهندســون	٧
عاطلــون	٧
ملاك أراضى	٦
أطبــاء	٦
أساتــذة	٤
مدرســون	٣
صحفيــون	١
	٣٠٣

قامت السياسة المصرية تجاه الأصولية الإسلامية ، منذ بدايات عهد عبد الناصر ، على الجمع بين القمع والتقريب كأسلوب للتعامل مع هذا التحدى المستمرّ لسلطة الدولة . كان نجاح عبد الناصر فى التعامل مع « الإخوان » ناتجا عن تأثيره الآسر بشكل غير عادى بالإضافة إلى جهاز استخبارات فعال جدا . إن جاذبيته الآسرة قد أضعفت من نفوذ « الإخوان » المذهبى(*) . ولم يكن لدى السادات ما يقوم مقام هذه الجاذبية ، كما أنه لم يكن قادرا على صياغة مقولات مذهبية يمكنه بها أن يرى ويكيف ملايين الشباب المصرى . خلق السادات بنفسه فراغا مذهبيا حين حارب الناصرية ، وكانت النتيجة أن ملىء هذا الفراغ جزئيا بالدعوة

(*) لعل القمع والإرهاب الشديدين وغسيل المخ الإعلامى المكثف كانت أقوى الأسباب فى ذلك .

obeikandl.com

الأصولية التى قامت بها جماعة « الإخوان » وفصائلها ،، مما أضرّ بالدولة المصرية(**) . كانت مأساة مصر هى أنه لا السادات ولا زملاؤه اهتموا كما يجب بعملية تعليم الشباب – عن طريق المذهبة والتكييف الاجتماعى – ليكونوا مواطنين موالين للدولة(***) . وهكذا ، ثبت أن خطة السادات فى إطلاق الحرية للإخوان ضد الناصريين فشلت فى أداء وظيفتها . كل ما استطاع السادات أن يقدمه للمواطن المصرى العادى هو ذلك الأمل الضعيف فى أن ينضم إلى القطاع الخاص لعله ينال شيئا من الثراء السريع . وإذا كان البعض قد نجح نجاحا مدهشا ، فإن وعود السادات الخيالية كانت مخيبة للآمال بالنسبة لملايين الطموحين . ولقد بدت دعوته إلى الوطنية المصرية ، بعد النجاح المتوسط فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، دعوة فارغة لعدم وجود صلح « مشرّف » بين العرب وإسرائيل ، وللفجوة المتسعة باستمرار بين أصحاب الملايين والطبقات الوسطى والدنيا . كما أن موجات اعتقال القادة النضاليين أو إعدامهم لم تفد فى إقامة استقرار طويل الأمد فى جو لا تملك الحكومة فيه الحوافز المذهبية – الروحية والمادية التى تضمن لها الفوز بولاء الشعب . كذلك فإن السادات كان يعارض القيام بإصلاحات جوهرية تكبح الممارسات غير القانونية لبعض أقربائه والمحيطين به . وكانت تصفيته لنقابة المحامين وإصداره « قانون العيب » ، إنما صُمّما لخنق المعارضة بوسائل قانونية . أيضا ، حرّك النظام المؤسسة الدينية من علماء الأزهر فشنّوا حملات إعلامية من خلال أجهزة الإعلام والمساجد ضد الجماعات الإسلامية . وبعد اغتيال السادات اشتدت هذه الحملة المضادة الموسعة التى شنتها المؤسسة الدينية . ولكى يشوه مفتى مصر الأكبر ، الشيخ

(**) ظهور التيار الدينى بين الشباب لم يكن فى عهد السادات ولا بعمله توصلا لهدم الناصرية كما ظن المؤلف . فالتيار الإسلامى ظهر عام ١٩٦٥ وقام عبد الناصر بالقبض عليهم ونشرت صحفه أن احذروا على أولادكم من المساجد ، كما أنه فى أواخر حكم عبد الناصر ظهرت هذه التيارات التى قامت ضد حكمه وهتفت بسقوطه عام ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ .

(***) لا تستطيع الدولة أن تضمن ولاء المواطنين لها ما لم تكن فى أقوالها وأفعالها ممثلة بإخلاص للمذهبية الحقيقية التى يدين بها أولئك المواطنون . والشعوب الإسلامية مذهبيتها الإسلام وحده ، ومهما خدع المسلمين عن دينهم – بالقهر أو بالتزييف – فلابد أن يعودوا إليه . وحتى الشعوب غير المسلمة لا تلبث – بعد التجارب المرة مع المذهبيات الوضعية – أن تتطلع إلى المذهبية الحق كما هو واضح اليوم فى ظاهرة البحث المتزايد عن الدين فى كل بلاد العالم .

جاد الحق ، من صورة جماعة « الجهاد » ، فقد اكتشف « حديثا » غريبا يروى فيه أن النبى (ﷺ) نصح المسلمين بطاعة الحكومة المسلمة حتى ولو كان أعضاؤها يسرقون ويزنون[٥٦] . وقد دعا الشيخ الشعب إلى طاعة السلطات ما دامت حكومة « مبارك » قد وعدت بالبدء فى الإصلاحات لتصحيح مظالم الماضى .

والحقيقة أن موت السادات أتاح لونا من التنفيس المؤقت أرجأ انفجار الموقف المتأزم فى مصر ، حيث حاول مبارك تغيير وجه النظام ببعض الإصلاحات الجزئية . لكن الرئيس الجديد ، على الرغم من نواياه الطيبة ، لا يملك الوسائل المذهبية ولا الكوادر المخلصة ليعالج علاجا شاملا علل المجتمع المصرى . إن تدهور الاقتصاد ، وإصرار مبارك على التمسك بالتزامات السادات تجاه إسرائيل والولايات المتحدة قد حالا دون تزايد الشرعية الإسلامية التى قد يحتاجها فى حكمه لمصر . وبينما حاول الرئيس بدء حوار مع شباب مصر ، فإنه قد أُكره على اتخاذ تدابير قمعيّة ضد الجماعات الإسلامية باسم قانون الطوارىء على فترات متقطعة[٥٧] . وفى عهد مبارك أُرسل « الخبراء الدينيون » إلى السجون لإقناع النضاليين الشبان بأن فهمهم للإسلام خاطىء . وتفيد بعض التقارير أن علماء الأزهر تعاونوا فى هذه الجهود الهادفة إلى ردّ الشباب ، بينما كانت وزارة الأوقاف كارهة[*] للمشاركة . وفى مناقشات السجون هذه ، وافق بعض النضاليين – تَقِيّةً – على موقف الحكومة وذلك – فقط – ليستأنفوا نضالهم الإسلامى بعد الافراج[٥٨] . إن اللجوء المتكرّر إلى الوسائل القمعية أمر غريب على طبيعة الرئيس ؛ لكن عجزه

---

(٥٦) لمزيد من المناقشة ، انظر : عمرو هـ . إبراهيم ، « الشرعية والثورة فى الإسلام » ، « شعوب البحر المتوسط » ، ٢١ (أكتوبر – ديسمبر ١٩٨٢) : ٨١ – ١٠١ (ف.) ، وكذلك ، الأهرام (١٩٨١/١١/٢١) .

(٥٧) فى سبتمبر ١٩٨٢ جدّدت الحكومة قانون الطوارىء عاما آخر . وفى نفس الوقت كانت هناك سلسلة اعتقالات للعناصر الإسلامية . من بين قتلى السجن الشيخ محمد كمال السنانيرى . انظر : المجتمع (١٩٨٢/٧/٢٧) : ١١ .

(٥٨) قالت الحكومة إن معدل نجاح هذا البرنامج كان ٧٠٪ ، المجتمع (٨٢/١٠/١٣) : ٢٠ .

(*) لعل هذا وهم من المؤلف أو نقص فى الفهم ، لأن الواقع – طبقا لما ظهر فى ندوات الرأى فى التلفاز – هو أن وزير الأوقاف قد شارك بنفسه فيها ، ولعل المؤلف استقى هذا من تقرير حكومى أوردته المجتمع (ع/٥٩٠ ، ص ٢١) ، وهو ينقل وجهة نظر الحكومة وما كانت تتوقعه من الأوقاف ومساجدها .

فى مواجهة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية المتزايدة ، والغزو الإسرائيلى للبنان ، وضم الضفة الغربية ، إنما تزيد من ضعف مرتكزات حكومته . إنه لمن الصعب – والجوّ هكذا – ألا ننتهى إلى القول بأن من المحتمل أن تصبح الأصولية الإسلامية تهديدا متناميا لاستقرار النظام المصرى .

obeikandl.com

٧ - سوريـــا

الأصولية السنية فى مواجهة حكم البعـث

يقف النظام السياسى السورى فى تناقض حادّ مع النظام المصرى من حيث أسسه السكانية والثقافية والاقتصادية . فسوريا يعوزها ما فى المجتمع المصرى من تجانس وترابط وإلف للسلطة المركزية . كذلك ، لم تمارس سوريا - كإقليم كان يخضع للإدارة العثمانية المباشرة - درجة التحديث التى وصلت إليها مصر فى جو الحكم الذاتى .

أصبحت سوريا الكبرى ، فى الأيام الأخيرة من الحكم العثمانى ، مركز القومية العربية . وإن انقسام المشرق العربى بعد الحرب العالمية الأولى إلى منطقتى نفوذ بريطانية وفرنسية قد ترك سوريا فى حالة تفكك جغرافى سياسى ومذهبى . فالأغلبية السنية فى سوريا قد فُصِلت - فى ظل نظام الانتداب - عن امتداداتها السكانية فى فلسطين والأردن ولبنان والعراق والحجاز . وبهذه الطريقة لم تتحقق التطلعات القومية للعرب السنّة تحت حكم الانتداب الإنجلو - فرنسى . وقد شجعت السلطات الفرنسية اتجاه التفتيت فقسّمت سوريا إلى مناطق طائفية ثم أنجزت تمزيقها الجزئى : فمنحت سوريا استقلالها وأعطى سنجق « الإسكندرونة » إلى تركيا . وفى الوقت نفسه قمع الفرنسيون الانتفاضات الوطنية فى المدن وثورة الدروز (٢٣ - ١٩٢٤) . وقد ولّدت هذه السياسة مشاعر تعاطف بين السوريين تجاه الألمان فى الحرب العالمية الثانية . بعد هزيمة نظام الانتداب الفرنسى فى « فيشى » (Vichy) أمام القوات البريطانية والفرنسية الديجولية وُعِدت سوريا بالاستقلال ثم مُنحته على مضض عام ١٩٤٥ .

التقدم السياسى السورى (١٩٤٥ - ١٩٧٠)

يتميز تاريخ سوريا المستقلة بتداخل معقد فى المذهبية والجغرافيا السياسية وفى الطائفية وسيطرة الحزب الواحد وصراع الطبقات وحكم « العسكر »[*] . هذا المرجل المليء بالقوى المتعارضة أرسى نمطا من سياسة الانقلابات التى أطلقت تداولا سريعا للنخب التى كانت تعمل فى بيئة من القلاقل المستمرة . وكانت النتيجة الطبيعية أزمة فى الشرعية لفّت النخب والمؤسسات السورية ما زالت مستمرة حتى الآن .

كانت النخبة السياسية التى حققت الاستقلال مكونة من القوميين التقليديين بقيادة الرئيس شكرى القوتلى . كانت السيطرة فى هذا النظام الديمقراطى البورجوازى للسنّة وبعض العناصر النصرانية من الطبقة العليا والعليا الوسطى . وبعد الاستقلال بعامين ، ورّطت الحكومة الجديدة الجيش السورى الضعيف التدريب بالقتال فى فلسطين فباء بالفواجع . رجع الجيش من الجبهة ليلوم الحكومة على هزيمته . وابتدأ بذلك سلسلة من الانقلابات بدأت فى مارس ١٩٤٩ وانتهت فى فبراير ١٩٥٤ . كان الزعماء الثلاثة ، الذين تولوا واحدا إثر الآثر : الزعيم والحناوى والشيشكلى ، من أصل كردى ، وهو أمر يعكس التقليد الفرنسى فى التجنيد من مجموعات الأقليات الفقيرة جدا التى تتطلع إلى التحرك إلى أعلى . وكان هذا فى مواجهة كراهية عناصر الطبقة العليا والقوميين السنّة للدخول فى خدمة الجيش ذى القيادة الفرنسية[1] . فى أواسط الخمسينات تمت عودة جزئية إلى الحكم المدنى على أساس تجمّع عدة تيارات اجتماعية وسياسية قوية . وقد شملت هذه قيام حزب البعث وظهور الناصرية ونشاط شيوعى قوى . لم يستطع حزب

(*) مصطلح « العسكر » ترجمة لـ (Praetorian) وهى من (Praetor) التى تعنى – فى روما القديمة – ضابطا فى الدولة منصبه تحت منصب رئيس الدولة مباشرة ، يبقى فى منصبه عاما واحدا وتشمل سلطته الجيش والقانون .

(١) نيكولاوس فان دام ، « الصراع على القوة فى سوريا » (لندن : كروم هِلْم ، ١٩٨١) ص ٤٠ . (أ.) .

البعث منذ إنشائه على يد ميشيل عفلق وصلاح البيطار أن يحصل على أغلبية فى الانتخابات على الرغم من ادعائه أنه يمثل قومية الوحدة العربية ؛ ومن هنا كان حرصه على أن يجنّد من الأقليات : النصارى والعلويين والدروز والإسماعيلية ومعدَمى السنّة . هذه المجموعات من المستعدّين للتجنيد كانوا يعيشون على الهامش اجتماعيا واقتصاديا ، وكثرتهم من سكان المدن الصغيرة والمناطق الريفية . والواقع أن البعث والجيش كانا يجنّدان من نفس مستنقع الفئات الهامشية عرقيا واقتصاديا ، وهى ظاهرة سوف تحدّد مجرى السياسة السورية مستقبلا .

كان المصدران الرئيسيان للتحدّى أمام البعث خلال منتصف الخمسينات هما « الحزب الشيوعى السورى » لخالد بكداش والحركة الناصرية المتنامية . وقد اتّبع البعث خطتين ، ليقوى من مكانته ويواجه النفوذ الشيوعى فى الجيش ، هما : ١ – المغامرة بالتجنيد من ضباط الجيش ؛ ٢ – عقد الوحدة مع مصر وسوريا . وعلى الرغم من كراهية عبد الناصر فى البداية ، فقد نجح قادة البعث فى إقناعه بإقامة « الجمهورية العربية المتحدة » (فبراير ١٩٥٨) التى ستمكنهم من استغلال قوة عبد الناصر وسحره ليحكموا سوريا . وقد باءت هذه الجهود بالفشل لأن الاختلافات البعثية المصرية قضت على الوحدة فى خريف ١٩٦١ . وقد أدّى فرض عبد الناصر للإجراءات الاشتراكية على نظام « المتعهّدين »(*) فى سوريا وثقل قبضة الحكم المصرى ، إلى القضاء على المشاعر الوحدوية(٢) . ومن المنظور الطائفى ، مال الحكم المصرى إلى التخفيف من الفروق المذهبية والمجتمعية باسم جامعة القومية العربية . وهكذا ، أشعل رحيل المصريين الصراع الطائفى من جديد ، حيث استولى الضباط السنّة من دمشق من المعادين لعبد الناصر على المناصب العليا بقيادة العقيد عبد الكريم النحلاوى(٣) .

(*) لعل نظام « المتعهّدين » (Entrepreneurial Culture) هو أسلوب اقتصادى يقوم على احتكار فئة معينة من كبار التجار للأنشطة التجارية واعتماد الحكومة عليهم فى إنجاز مخططاتها الاقتصادية .

(٢) بشأن ج . ع . م .، انظر : ر . هرير دكمجيان : « مصر تحت عبد الناصر » (ألبنى ، ط/ج . سراكيوس ، ١٩٧١) ، ص ٥٩ . (ا.) .

(٣) فان دام ، « الصراع ... » ، ص ٤١ – ٤٢ .

عاد البعث إلى القوة بانقلاب ٨ مارس ١٩٦٣ بالتعاون مع الضباط الناصريين الوحدويين المستقلين ؛ وقد قام الحزب بمحاولات لاسترجاع الوحدة ولكن عبد الناصر رفض ذلك . وصل القتال الداخلى بين البعث والضباط الناصريين إلى ذروته فى يوليو ١٩٦٣ بانتصار اللجنة العسكرية للبعث على كتلة العقيد جاسم علوان الناصرية . ومع أن الطائفية لم يكن لها دور واضح فى هذا الصراع ، فإن الكتلة الناصرية كانت أساسا سنّية ، بينما كانت لجنة البعث العسكرية مكونة فى أغلبها من الضباط العلويين والدروز والإسماعيليين . وكانت النتيجة حركة تصفية للكتلة الناصرية قامت بها اللجنة العسكرية ورافقتها سياسة طموحة للتجنيد من بين ضباط الأقليات[٤] . والأمر الذى بدأ على شكل صراع بين المذهبيات والشخصيات سرعان ما اصطبغ بلون طائفىّ كان من أسبابه انضمام « الإخوان المسلمين » . وفى أبريل ١٩٦٤ تم سحق ثورة ضد البعث فى مدينة « حماة » السنية ، بينما اشتدّ الصراع من أجل القوة داخل اللجنة العسكرية ذاتها . وفى ديسمبر ١٩٦٤ تم طرد اللواء العلوى محمد عمران من سوريا متهما بمحاولة تشكيل « كتلة فاطمية » من الضباط الخارجين على الإسلام[٥] . أدى طرد « عمران » إلى إثارة الرئيس « أمين الحافظ » السنّى ضد قائد الأركان اللواء « صلاح جديد » . وعلى الرغم من المحاولات المتأخرة للواء « الحافظ » لإقامة كتلة متماسكة من الضباط السنّة ، فقد أطيح به فى فبراير ١٩٦٦ ومعه قادة الحزب ميشيل عفلق وصلاح البيطار . وهذا الانقلاب أتى إلى السلطة بالجناح العسكرى اليسارى للبعث الذى كان يمثل تضامنا بين الحزب والجيش . وعلى الرغم من سيطرة مجموعة الضباط العلويين المتنامية ، فإنهم لم يستطيعوا أن يتجنبوا التفرق . فبعد حرب ١٩٦٧ انقسم جهاز البعث السياسى – العسكرى بين مجموعتين يرأس إحداهما اللواء صلاح جديد والأخرى اللواء حافظ الأسد . وقد سيطر الأسد ، بحكم كونه وزير الدفاع ، على الجيش ، بينما شدّد « جديد » قبضته على جهاز الحزب . وفى نوفمبر ١٩٧٠ تحرك الجيش لسحق مجموعة « جديد » ، وأصبح « الأسد » أول رئيس غير سنّى لسوريا (فبراير ١٩٧١) . وهكذا ساعد

---

(٤) السابق ، ص ٤٣ – ٤٤ .

(٥) السابق ، ص ٥٤ – ٥٥ .

الجيش السورى وحزب البعث فى تهيئة الوسائل للأقليات المهضومة فى سوريا ، خاصة العلويين ، للتقدم وامتلاك القوة .

الأصولية الإسلاميـة كحركة طائفيـة

تتحدّد الخصائص المميزة للحركة الإسلامية فى سوريا بأمور واقعية هى القوة والثروة والتركيبة السكانية – وهى شروط تختلف إلى حد كبير عن تلك الموجودة فى مصر . فعلى حين يستهدف الاحتجاج الإسلامى المصرى نظام حكم يسيطر عليه السنّة ، ترتب الأصولية الإسلامية السورية نفسها على شكل حركة احتجاج سنية ضد حكومة قيادتها علوية . وفى هذا الصدد تشبه الحركية السنية السورية حركة الأغلبية الشيعية فى العراق التى تعارض نظام صدام حسين البعثى ذا القيادة السنية . كلا الحركتين الإسلاميتين تدعى أنها تمثل أغلبيتين طائفيتين يحكم كلا منها نظام أقلية باسم حزب البعث العلمانى(*) .

« الإخوان المسلمون » السورية : منشؤها وتطورها

يمكن إرجاع أصول « الإخوان المسلمين » السورية إلى جمعيات خيرية إسلامية أسست أواخر القرن التاسع عشر . شُكّلت « الإخوان » ١٩٣٥ فى حلب ؛ وفى ١٩٤٤ انتقلت إلى دمشق حيث تمكن د . مصطفى السباعى من دمج الجمعيات الإسلامية السورية . وقد قاد « الإخوانَ » ، مراقبا عاما ، من ١٩٤٥ – ١٩٦١ بالتعاون مع « الإخوان المسلمين » المصرية(٦) . وتشبه « الإخوانُ »السوريةُ المصريةَ من حيث التشكيل . ومع أن الحركتين تعتبران

(*) هناك فروق جوهرية بين الحركتين : فالسنة فى سوريا يمثلون الخط الإسلامى الأصيل ، وهم أغلبية ساحقة (٨٦٪) مقهورة تواجه أقلية ضئيلة (لا تزيد عن ١٠٪) خارجة على الإسلام . أما فى العراق فالشيعة أغلبية ضئيلة (٥٢٪) لا تمثل الخط الأصيل للإسلام تعيش تحت حكم حزب علمانى لا يمثل مسلمى العراق السنة من حيث المذهبية ، بل الطائفتان – سنة وشيعة – واقعتان تحت حكم علمانى شديد .

(٦) عمر فاروق عبد الله ، « الكفاح الإسلامى فى سوريا » (بيركلى ، ط/ميزان ، ١٩٨٣) ، ص ٨٩ – ٩٠ . حنا بَتاتو : « الإخوان المسلمون فى سوريا » ، تقارير MERIP (نوفمبر – ديسمبر ١٩٨٢) : ١٦ .

نفسيهما حركة واحدة ، إلا أن كلا منهما تُدار ذاتيا . وتستمد السورية ، كالمصرية ، التأييد من عناصر الطبقة الوسطى والوسطى الدنيا : من تجار الأسواق والكتبة والمعلمين والمهنيين والموظفين . لكن السورية تختلف عن المصرية فى أن الطبقة الوسطى الدنيا الريفية وما نشأ عنها فى المدن لا تمثل عنصرا مهما للإخوان السورية المتمركزة فى المدينة .

التوجه المذهبى للسباعى يتبع « البنا » عن قرب ، على الرغم من أن السباعى ، فى منتصف الخمسينات . قدم نظرية مفصلة إلى حد كبير عن الاشتراكية الإسلامية . ترجع أصول السباعى الفكرية إلى الأزهر وإلى صداقته للبنا . كانت مصر ، فى الواقع ، بوتقة بدأ السباعى فيها أنشطته الثورية التى أدت به إلى السجن فى مصر ثم فى سوريا أيام الحكم الفرنسى . وعلى هذا ، فإن أساس الدوافع لدى الملتزمين بالإخوان يشمل الاحتلال الفرنسى والنتائج السياسية والاقتصادية التى مزقت الوطن العربى إلى وحدات قومية . تصوّر السباعى حركته روحا وثورة جديدة كرست نفسها لإقامة النظام الإسلامى الشامل[٧] . ساهمت هزيمة العرب ١٩٤٨ فى توسع الجماعة التى قمعها العقيد أديب الشيشكلى فى ١٩٥٢ . وحين أطيح به فى ١٩٥٤ واجهت الجماعة تحديات خطيرة من البعث والناصريين والشيوعيين . كذلك لم يكن للجماعة نشاط أثناء وحدة مصر وسوريا نظرا لأن معظم دعمها الآتى من الطبقة الوسطى المدنية السنية قد امتصه عبد الناصر . حلّ السباعى جماعته ١٩٥٨ تمشيا مع رغبة عبد الناصر .

أيدت « الإخوان » انفصال الجمهورية العربية المتحدة بسبب معارضتها المذهبية لعبد الناصر . انضم بعض أعضائها إلى الضباط السنّيين الانفصاليين بقيادة عبد الكريم النحلاوى وفازوا بعشرة مقاعد فى البرلمان . ولم يدم هذا الفوز إلا قليلا إذ ما لبث البعث أن عاد إلى السلطة فى مارس ١٩٦٣ وعمل على قهر

---

(٧) عبد الله ، « الكفاح الإسلامى » ، ص ٣٩ . بشأن فكرة الاشتراكية ، انظر : مصطفى السباعى ، « اشتراكية الإسلام » (دمشق ، ١٩٥٨) . وبشأن تأثير البنا على « إخوان » سوريا ، انظر : سعيد حوى : « جولة فى الفقهين الكبير والأكبر » (الاسكندرية ، مصر ، ١٩٨٠) ، ص ١٩ – ٢١ ، ٧٦ – ٨٢ ، ١٢٦ – ١٢٧ .

« الإخوان » بعنف متزايد . نُفي قائدُها الجديد ، عصام العطار ، وأُجبر على قيادة الجماعة من الخارج دون نجاح تام . وفى منتصف الستينات ظهرت « الإخوان » كخصم عنيد للبعث ، على الرغم من أن « العطار » انفصل عن القادة الآخرين لمعارضته الجهاد المسلح ضد النظام[٨] . لم يستطع « العطار » ، كداعية مخلص للإصلاح ، أن يتسامح مع العنف الثورى . ومع ذلك فقد اشتدت المواجهة عام ٦٤ – ١٩٦٥ نتيجة ثورة « حماة » وحملة « الإخوان » للعصيان المدنى التى قادها الشيخ حَبَنَّكة . وفى أثناء عملية الانقسام الداخلى فى جهاز البعث السياسى والعسكرى ، لم تستطع « الإخوان » القيام بدور حاسم فى جو الصراع بين « الأسد » و« جديد » على السلطة . وقد أيّد « العطارُ » – بسبب اعتداله المذهبى – « الأسدَ » من منفاه فى ألمانيا الغربية . وفى أيام الإحباط عقب هزيمة العرب فى ١٩٦٧ ، ظهر انقسام فى « الإخوان » بين جماعة دمشق المعتدلة التى توالى « العطار » وجماعة المدن الشمالية التى تفضّل الجهاد . ومن النضاليين « مروان حديد » من « حماة » الذى سجنه عبد الناصر فى ١٩٦٥ مع سيد قطب . بدأ « حديد » التدريب مع « فتح » الفلسطينية عام ١٩٦٨، استعدادا للتحدى المستمر الذى قد يقوم به « الإخوان » ضد نظام البعث فى السبعينات . وبدأ « حديد » ، بعد العودة إلى دمشق ، حملة لاغتيال شخصيات الحكومة . قبض عليه فى ١٩٧٦ ومات فى السجن .

اللجوء إلى الجهـــاد (٧٦ – ١٩٨٣)

مرت الحركة الإسلامية فى سوريا خلال عدة مراحل بعد أواخر الستينات تميزت بتزايد مستوى النضالية التى انتهى إلى الجهاد بالقوة عام ١٩٧٦ . إن تحول « الإخوان » من جماعة دينية – سياسية إلى منظمة قتالية كان سببا فى شق الجماعة . ولم يُحَلّ الانقسام بين الشماليين النضاليين وجماعة العطار فى دمشق إلا فى ١٩٨٠ حين شكلت الجبهة الإسلامية السورية[٩] . كان « الإخوان »

---

(٨) عبد الله ، « الكفاح الإسلامى » ، ص ١٠٣ .

(٩) السابق ، ص ١٠٨ .

الشماليون بقيادة : أمين يكّن وعدنان سعيد والشيخ عبد الفتاح أبو غدة وسعيد حوّى وعدنان سعد الدين الذين كانوا على اقتناع بأنه لا يمكن إزالة نظام « الأسد » إلا بكفاح عسكرى منظم تنظيما حسنا . لكن جهودهم الأولى فشلت فى اجتذاب تأييد شعبى على ضوء تقارب « الأسد » مع مصر والأردن والسعودية وسياساته فى الإصلاح والتحرر الاقتصادى . وهذه السياسات ، تدعمها ثروة دول الخليج النفطية ، وقد ساهمت فى تحسين الأحوال المعيشية للعناصر الاجتماعية التى كانت تميل إلى تأييد « الإخوان » . تغير الموقف عام ١٩٧٣ حين أعلن « الأسد » دستورا علمانيا مما أثار اضطرابات ومظاهرات واسعة النطاق يقودها « الإخوان » . استمرت الاضطرابات المتقطعة خلال أبريل ١٩٧٣ مما يعكس ازدياد التعاون بين « العلماء » و« الإخوان » ضد الحكومة . دفع هذا « الأسد » إلى تعديل الدستور لينص على وجوب أن يكون الرئيس مسلما . قام الأسد بأداء العمرة عام ١٩٧٤ وداوم على حضور صلاة الجمعة فى مسجد دمشق ليبطل فاعلية نقد من ينتقصونه من الأصوليين[١٠] .

رفعت حرب ١٩٧٣ من المشاعر القومية عند العرب ؛ وقد سرق النظام من « الإخوان » زخمهم إذ اتّحد معظم السوريين خلف الرئيس . لكن « الأسد » والقيادة العليا للجيش تعرّضا لنقد « الإخوان » لإضاعتهم « الجولان » « واشتراكهم فى عملية (كيسنجر) للسلام » وإقامة علاقات وثيقة مع شاه إيران[١١] . وظل الحال على ذلك حتى ٧٥ – ١٩٧٦ حين وُجدت ظروف جديدة أثارت مستوى عاليا من الجهاد المسلح . كان الباعث الرئيسى هو دور سوريا فى الحرب الأهلية فى لبنان ، كما كان الفساد الحكومى وظهور الطبقة الطفيلية من المنتفعين والتضخم السريع من بواعث السخط[١٢] . تمثلت نقطة التحوّل فى تدخّل « الأسد » إلى جانب الموارنيين ضد تحالف الفلسطينيين واليساريين المسلمين . وإذا كان نجاح الأسلحة السورية بادىء الأمر قد هيّأ

---

(١٠) فان دام ، « الصراع » ، ص ١١١ – ١١٢ ؛ وعبد الله ، « الكفاح الإسلامى » ، ص ١١١ .

(١١) عبد الله ، « الكفاح الإسلامى » ، ص ٦٦ – ٦٧ .

(١٢) بتاتو ، « الإخوان المسلمون فى سوريا » ، ص ١٩ – ٢٠ .

للأسد مكانة واضحة ، فإن عجزه عن فرض إرادته على المارونيين أصبح مصدر نقد واسع النطاق . وكان رفض سوريا السماح للقوات الفلسطينية بفكّ الحصار المارونى عن « تل الزعتر » موقفا مزعجا بشكل خاص إذ أدّى إلى مجازر لكثيرين من الفلسطينيين . اتهمت « الإخوان » الأسد بأنه يعمل فى لبنان لحساب المصالح الإسرائيلية والمارونية والأمريكية والسعودية[١٣] . لكن أشدّ ما كانت تشكو منه المعارضة الإسلامية هو تزايد دور العلويّين فى النظام وما لازمه من تقلص قوة السنّة ومكانتهم . فبينما احتل السنّة مراكز بارزة فى الجهاز السياسى (الوزارة والتشريع والحزب) فإن القوة العسكرية الفاعلة تركّزت فى جملتها فى يد الرئيس الأسد وطائفته العلويين . اتهم « الإخوان » النظام بأنه « طائفىّ » وأنه يتكون من « مسلمين زائفين » ، وهذا إشارة إلى علمانية البعث وإلى الشك فى وضع العلويين (النصيريين) كفرقة إسلامية . وكانت عداوة « الإخوان » تتوجّه بشكل خاص تجاه « رفعت الأسد » – أخى الرئيس – لأساليبه العدوانية وتصرفاته اللا أخلاقية التى أصبحت مصدر استياء فى سوريا كلها . تولى « رفعت الأسد » قيادة « سرايا الدفاع » المسؤولة عن حماية الرئيس والنظام[١٤] . هذا التشكيل النُّخْبى – وكذلك تشكيل « الوحدات الخاصة » بقيادة « على حيدر » – يتكوّن فى جملته من العلويين المعروفين بولائهم لنخبتهم الحاكمة .

تولّى عدنان سعد الدين ، فى منتصف السبعينات ، قيادة « الإخوان » كمراقب عام ليقوم بالإعداد لمرحلة جديدة من الكفاح ضد البعث . بدأت المرحلة الأولى من الجهاد عام ١٩٧٦ حين استخدمت « الطليعة المقاتلة » للإخوان خطة الضربات الخاطفة لتثير النظام حتى يصعّد قمعه . استهدفت هذه الطليعة الزعماء العلويين وعملاء الاستخبارات ومحترفى الحزب ليكشفوا عن الجانب الطائفى من نظام « الأسد » . وفى يونيه ١٩٧٩ بدأت مرحلة جديدة من الجهاد المركّز بقتل ٨٣ من طلاب مدرسة المدفعية فى حلب وبالهجمات المذهلة

---

(١٣) عبد الله ، « الكفاح الإسلامى » ، ص ٧٠ – ٧٣ .

(١٤) قيل إن عددا من كبار القادة عارضوا ترقية العقيد رفعت الأسد إلى رتبة لواء فى يولية ١٩٨١ ؛ انظر : « النهار » (١٣/٨/١٩٨١) : ٢٠ . بشأن شبكة أقرباء الأسد ، انظر : حنا بتاتو ، « ملاحظات حول الجذور الاجتماعية للمجموعة العسكرية الحاكمة فى سوريا وأسباب سيطرتها » ، « مجلة الشرق الأوسط » ٣٥ : ٣ (صيف ١٩٨١) : ٧ – ١٠ . (إ.) .

على المبانى الحكومية ومراكز الشرطة ومقارّ حزب البعث[١٥] . وفى مارس ١٩٨٠ حدثت مظاهرات ومقاطعات واسعة النطاق فى حماة وحمص وحلب وسط هجمات على الشيوعيين السوريين وعلى المستشارين العسكريين الروس . وقد ردّت الحكومة بحركة قمع واسعة النطاق ، خاصة فى حلب . وقد دفعت محاولةٌ لاغتيال الأسدِ النظامَ إلى زيادة الإرهاب المضاد الذى شمل مذابح سجن تدمر[١٦] . أصدرت الحكومة القانون ٤٩ فى ٨ يوليو ١٩٨٠ بجعل القتل عقوبة من ينضمُّ إلى الإخوان أو يشترك معهم .

أشارت الدلائل خلال عام ١٩٨٠ إلى أن « الأسد » و« الإسلاميين » قد تورّطا فى حرب يائسة . نجح « الإخوان » إلى حد ما فى إبعاد السُّنّة عن النظام ، لكن هذا جعل الطائفة العلوية تتجمع خلف « الأسد » حفاظا على أمنها . ومع ذلك ، فقد بات واضحا أن النظام قد نجح فى كبح العصيان وكال للإخوان وحلفائهم ضربة شديدة .

كان من نتائج هزيمة « الإخوان » قيام « الجبهة الإسلامية فى سوريا » فى أكتوبر ١٩٨٠ ، واختير الشيخ محمد أبو النصر البيانونى – الحلبى – أمينا عاما لها . ضمت الجبهة : « الإخوان » وجماعة « العطار » المنشقة ، وبعض العلماء والجماعات الإسلامية الصغيرة ، (انظر : جدول – ٦ ، وملحق – ١) . كان محركها هو عدنان سعد الدين – من حماة – وهو عضو سابق فى « الإخوان » المصرية . وكان التالى له هو سعيد حوى المنظّر العام للحركة الإسلامية السورية . أصدرت الجبهة ، فى ٩ نوفمبر ١٩٨٠ ، بيانا يحتوى على برنامجها الذى وضعت خطوطه العريضة فى ميثاق الحركة الذى نشر فى يناير ١٩٨١ . اجتهدت الجبهة فى برنامجها – دون جدوى – أن تشقّ صفّ العلويين وأن تدفع العناصر المعارضة كلها إلى الوقوف وراء هذا البرنامج الذى جمع فى شىء من المرونة تصورات إسلامية وتحررية (ليبرالية) وديمقراطية . وتفيد النقاط الأساسية فى هذا البيان فى

---

(١٥) « النهار » (١٩٨٠/٤/٢٩) : ٧ – ١٠ . (أ.) .

(١٦) عبد الله ، « الكفاح الإسلامى » ، ص ٨٤ – ٨٦ . وانظر أيضا ، ألسْدير درايسديل ، « حكم الأسد ومشكلاته » ، تقارير MERIP ١٢ : ٩ (سبتمبر ١٩٨٢) : ٨ . (أ.) .

توضيح الملامح المميزة للحركة الإسلامية السورية ونواحى الاتفاق والاختلاف بينها وبين قريناتها المصرية والعراقية والسورية وسواها :

١ – نداء إلى « العقلاء » من الطائفة العلوية أن يثوروا على « نظام الأسد وإخوته » لمنع مأساة الحرب الأهلية .

٢ – دعوة إلى تحرير المواطنين من « الطغيان » وإلغاء المعتقلات السياسية ، وضمان حرية الفكر والتعبير ، والمحافظة على حقوق الأقليات .

٣ – المطالبة بحكومة تقوم على الفصل بين السلطات وسيادة القانون القائم على الشورى وضمان كرامة الفرد وحريته وتحرره .

٤ – تأييد تملّك الفلاحين الكامل للأرض وإلغاء دور الوسطاء والدولة فى القطاع الزراعى .

٥ – نقل ملكية الصناعات العامة من الدولة إلى العمال الذين يكافأون بالعدل لا بالإسراف .

٦ – معارضة قيام الدولة بدور التاجر ، وتأييد حرية القطاع الخاص فى التجارة والصناعة وتشجيع الحرفيين .

٧ – الالتزام بالاشتراكية الإسلامية(*) لإقامة عدالة اجتماعية فى ظل الشريعة الإسلامية .

٨ – الالتزام بالجهاد فى سبيل الله كفريضة ثابتة فى الإسلام من أجل تحويل النظام الطائفى الحالى إلى دولة إسلامية .

٩ – تقوية القومية والوحدة العربية ضمن إطار التضامن الإسلامى الأوسع .

١٠ – عدم الانحياز فى العلاقات الخارجية .

١١ – الإصرار على معارضة إسرائيل والصهيونية(١٧) .

---

(١٧) « بيان الثورة الإسلامية فى سوريا ومنهاجها » (دمشق ، ٩ نوفمبر ، ١٩٨٠) . المرتكزات العَقَدِيّة لـ « إعلان الجبهة » شديدة التحديد : انظر ، سعيد حوى ، « الله جل جلاله » (بيروت ، ١٩٧٥) ، ص ١٦٢ – ١٨٦ .

(*) رغم أن للدكتور مصطفى السباعى كتابا بعنوان « اشتراكية الإسلام » إلا أن « بيان الثورة =

ويظهر على بيان الجبهة الإسلامية وميثاقها بوضوح تأثير البنا ، وأيضا « رضا » و« السباعى » و« قطب » و« حوّى » . وعلى الرغم من اتفاق مذهبيات الإسلاميين المصريين والسوريين فى عموميات مهمة ، فإن ذلك يجب ألا يخفى الفروق البارزة :

١ – انسجاما مع التعدد الطائفى فى سوريا ، جاء برنامج الجبهة خلوا من التصلب المذهبى الذى ميّز مذهبيات الجماعات الأصولية فى مصر .

٢ – تعكس مذهبية الجبهة وميثاقها معنى عمليا (مصلحيا) أكثر وتنقصهما التعقيدات المبدئية الدقيقة والجدليات التى كانت إحدى سمات الجماعات الإسلامية المصرية .

٣ – يبدو أن الجماعات المكونة للجبهة تشترك فى مذهبية واحدة تمثل الخط العام للأصولية السنّية . أما التوجهات الخلاصية والطقوسية ، كما فى حالة جماعة « التكفير » المصرية ، فلم يكن لها دور فى الأصولية السورية .

٤ – يبدو على « الإخوان » ومن تبعهم فى الجبهة الإسلامية استعداد أكبر للدخول فى جهاد شامل ضد الحكومة السورية أكثر مما لدى « الإخوان » المصرية وفصائلها . ولعل هذه الظاهرة نابعة من وجود حافز أعظم لدى الإسلاميين السوريين لقتال ما يعتبرونه « نظاما طائفيا » غير شرعى ، أكثر مما لدى الأصوليين المصريين الذين تحكمهم حكومة سنّية .

يعكس البيان أيضا الجهود الدءوبة للجبهة الإسلامية فى صياغة برنامجها لضمان أعظم من درجة تأييد الشعب السورى. فالوثيقة تحتوى على أعلى درجة من التحرر فى تفسير النظرية الإسلامية وفى العمل السياسى ، كما تظهر توجّهاً نحو سعة الصدر لمختلف الآراء الإسلامية والطبقات والجماعات المهنية ، وحتى الأقليات . وهذه المرونة غير المألوفة إنما دفع إليها العبء الضخم الذى تحمله الجبهة ، الإطاحة بالنظام البعثى . والذى تصورت الجبهة أنه الخطر القائم قد أوقع بالحركة الإسلامية خسائر فادحة .

= الإسلامية » فى سوريا (دمشق ١٤٠١/١/١ هـ = ١٩٨٠/١١/٩ م) لم يستخدم هذا المصطلح .

وعلى أى حال ، فقد أدت ضرورات الجهاد إلى مرحلة ثالثة من الكفاح المسلح بدأت فى أغسطس ١٩٨١ ووصلت ذروتها فى ثورة حماة فى فبراير ١٩٨٢ . بعد ثلاثة أسابيع من القتال ، تمّ سحق التمرد ودمرت أجزاء من حماة[١٨] . لم تفلح ثورة حماة فى إثارة انتفاضة عامة فى سوريا كلها ، على الرغم من اشتداد الكفاح ونداءات زعماء الجبهة الإسلامية . لقد بقيت الأغلبية السنّية ساكنة ، كما وقف الجيش – المنشغل أصلا بلبنان – إلى جانب الحكومة .

الحركة الإسلامية فى سوريا : الأسس الاجتماعية والتوقعـات

مرت « الإخوان » وتفرعاتها ، فى السبعينات ، بحالة تحوّل من منظمات صغيرة نسبيا وسَلِسَة إلى حركة ثورية كبيرة ونضالية . تفيد التقارير أن عدد الحركيين الإسلاميين فى حلب قد تضاعف عشر مرات فى الفترة من ١٩٧٥ – ١٩٧٨ ، وقدّر بما بين ٥٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ عضو[١٩] . والتقدير الذى يبدو معقولا للأعضاء الحركيين فى الجماعات الإسلامية فى سورية كلها أواخر السبعينات قد يصل إلى ٣٠,٠٠٠ بالإضافة إلى المتعاطفين . ومن المفترض أيضا أن الحجم العددى للمعارضة الإسلامية قد تقلّص بعد صدور القانون ٤٩ فى يوليو ١٩٨٠ والخسائر الكبيرة التى نزلت بحماة وبأماكن أخرى فى سوريا[٢٠] . وكانت النتيجة أن انخفضت بشكل كبير أعمال الإرهاب المضاد للنظام ، ولكن ليس من المعقول أن نزعم أن المعارضة الإسلامية ستبقى نائمة .

إن توجه « الإخوان » وحلفائها حركيا فى المستقبل ينبثق من ثلاثة مصادر :

أولها : هو المبدأ الدينى السياسى القائل بوجوب ألا يحكم البلد ذى الأغلبية السنية إلا مسلمون سُنّة . **وثانيها** : يدور النشاط المستقبلى للإخوان على

---

(١٨) أذاع الإخوان أن أكثر من أربعين مسجدا دمرت أثناء القتال فى حماة ؛ انظر : النهار (١٩٨٢/٦/٤) . انظر كذلك ، النذير (الطبعة الفرنسية ، أبريل ١٩٨٢) .

(١٩) بتاتو ، « الإخوان المسلمون فى سوريا » ، ص ٢٠ . (إ.) .

(٢٠) بشأن خسائر حماة ومن قتلوا فى السجون ، انظر : النذير (١٩٨٢/٦/١٤ ، سبتمبر ١٩٨٢) .

أساس تمكنهم من أن يصبحوا الممثل الأول لقاعدة عريضة من المعارضين للبعث .

ثالثا : يمكن للإخوان أن يصمدوا إذا لقوا تأييدا مستمرا من الطبقات السنية فى المدن الذين قضت سياسات النظام على قوتهم السياسية والاقتصادية . كانت قيادة المعارضة الإسلامية ، إلى درجة كبيرة ، فى يد فئات اجتماعية تنتمى إلى « العهد السابق » . كذلك ، فإن « الإخوان » تمثل العلماء من ذوى الدخل المحدود وصغار الحرفيّين وأصحاب المحلات فى الأسواق الداخلية فى المدن . ولا شك أن السياسة البعثية لم تعمل لمصالح هذه المجموعات الدينية الوسيطة ، وإنما اتجهت إلى تفضيل المثقفين العلمانيين والعسكريين والعناصر الريفية وعمال الصناعة والأقليات . كذلك ، لم ترض « البورجوازية التجارية » بتأميم الصناعة والتجارة الخارجية[٢١] . هذه الإجراءات ، بالإضافة إلى سياسة النظام « الاشتراكية » فى إقامة تعاونيات زراعية واستهلاكية ، قد عادت بالضرر على المصالح الاجتماعية والاقتصادية للطبقات السنيّة من ملّاك الأراضى والتجار والصناعيين[٢٢] . ومن الواضح أن الإسلاميين الأشد نضالية قد انحدروا من أسر تقليدية من الطبقتين الوسطى والوسطى الدنيا من أهل المدن من صغار التجار والمهنيين والكتبة . ويتميز هؤلاء النضاليون بسمة أخرى بارزة هى التعليم العالى الذى لم يحظ به آباؤهم . وتشير الحقائق الاحصائية الجزئية عن الخلفية الوظيفية ، لـ ١,٣٨٤ حركى قبضت عليهم الحكومة بين عامى ٧٦ – ١٩٨١ ، إلى زيادة نسبة الطلاب بينهم (٢٧,٧٪) ومدرسى المدارس (٧,٩٪) والمهنيين (١٣,٣٪) . وتضم المجموعة الأخيرة ٧٩ مهندسا و٥٧ طبيبا و٥٢ محاميا و١٠ صيادلة[٢٣] . وهذه الأنماط واضحة أيضا فى قيادة الجماعات الإسلامية السورية (انظر : جدول –

---

(٢١) ريموند ا . هنّيبوش ، « الحركة الإسلامية فى سوريا : الصراع الطائفى والتمرد الحضرى فى نظام شعبى فاشستى » ، فى « الانبعاث الإسلامى فى العالم العربى » ، تحرير ، علىّ الدين هلال دسوقى (نيويورك ، بريجر ، ١٩٨٢) ، ص ١٦٠ . (إ.) .

(٢٢) فريد هـ . لاوسون ، « الأسس الاجتماعية لثورة حماة » ، تقارير MERIP (نوفمبر – ديسمبر ١٩٨٢) : ٢٢٤ – ٢٢٨ . (إ.) .

(٢٣) بتاتو ، « الإخوان المسلمون فى سوريا » ، ص ٢٠ . (إ.) .

٦) . فلم يكن إذن صدفة أن تحل الحكومة فى أبريل ١٩٨٠ اتحادات المحامين والمهندسين والأطباء[٢٤] .

تعانى « الإخوان » ، رغم قاعدتها الاجتماعية المدنية ، من نقاط ضعف ، منها تفرق المجتمع السنّى وعجز « الإخوان » عن التغلغل فى الريف . كما أن « الإخوان » ، بحكم ارتباطها بالمدينة ، لا تستطيع أن تمثّل مصالح الفلاحين ولا أن تؤثر عليها[٢٥] . بل يبدو أن بعض أغنياء التجار السنة فى دمشق قد أيدوا الحكومة و« الإخوان » معا حماية لمصالحهم فى المستقبل .

القيادة الإسلامية فى سوريا : الملامح

يقدم (جدول – ٦) صورة مركبة للنخبة الإسلامية السورية . وهو يكشف – فى الجملة – عن خصائص وأنماط عامة لها أهميتها فى الموازين السياسية والاجتماعية – الاقتصادية . من الواضح جدا غلبة خلفية الطبقة الوسطى المدنية على القيادة الأصولية فى سوريا . وعلى نفس المستوى تقف الخلفية الجغرافية للخمسة عشر زعيما . وكل المدن الرئيسية ممثلة باستثناء « حمص » التى ظلت هادئة نسبيا خلال الاضطرابات الأخيرة . يمثل كلا من دمشق واللاذقية زعيم واحد ، الأمر الذى قد يشير إلى ضعف الحماس الإسلامى نسبيا فى هاتين المدينتين . وفى المقابل ، يمثل حلب وحماة من الزعماء سبعة وخمسة على التوالى ، وهو ما يعكس قوة الانبعاث الإسلامى فى هذين المركزين التقليديين للنشاط المعادى للنظام . كذلك يشير جدول – ٦ إلى مجموعتين نمطيتين من أصحاب المراكز : المهنيين التحرّريين والعلماء . وتضم المجموعة الأخيرة خمسة زعماء : الشيخ محمد البيانونى وأبو غدة وحامد وخير الله وسعيد حوّى ، المنظر الرئيسى للإخوان . ومن بين الباقين ستة ذوو خلفية مهنية :

---

(٢٤) إبراهيم حسن : « سوريا : الحرب الأهلية » ، شعوب البحر المتوسط ، ١٢ (يوليو – سبتمبر ١٩٨٠) : ١٠٣ (ف.) .

(٢٥) هِنّيبوش : « الحركة الإسلامية »، ص ١٥٦ . (إ.) .

مهندس وطبيب أسنان ومعلم ومحام ، معظمهم ولدوا فى أسر دينية أو فيها علماء دين . كان عدنان عقلة الذى قاد مقاتلى « الإخوان » مهندسا مدنيا وضابطا فى الجيش . وكان سلفه ، عبد الستار الزعيم ، طبيب أسنان وابن تاجر . وحسنى عابو ، الذى قاد فرع حلب ، كان مدرسا للفرنسية وابن رجل أعمال ثرى وزوج ابنة إمام مشهور . والدكتور دعبول درّس الرياضيات فى جامعة دمشق ، وعلى البيانونى مارس القانون وكان عدنان سعد الدين مدرسا وكاتبا[٢٦] . هذه المعلومات ذات دلالة فى مجال التشكيل النفسى والاجتماعى لهؤلاء النضاليين . ومن الواضح أن تلقيهم تعليما تقنيا حديثا لم يحل دون تعميق مثاليتهم الإسلامية ، كما هى الحال بالنسبة للمهنيين التحرريين فى الغرب . والمهم أن هذا النمط نفسه قد لوحظ بين الأصوليين المصريين وكذلك فى الجماعات الإسلامية الناشئة فى المغرب والسعودية . وأخيرا ، يعكس جدول – ٦ الفرق بين جماعة دمشق المعتدلة وجماعة النضاليين الجهاديين فى الشمال (حماة ، حلب ، اللاذقية) ، وأيضا بين نضاليى عدنان عقلة والجبهة الإسلامية . الزعماء الثلاثة الكبار فى الجبهة الإسلامية – البيانونى وسعد الدين وحوّى – يعيشون فى المنفى ؛ قتل أربعة ولا يزال مصير الآخرين ومكانهم مجهولا . كل من الخمسة عشر زعيما قضى زمنا فى السجن ، وربما لا يزال هناك العديدون .

جدول – ٦ : قيادة الحركة الإسلامية السورية

الاسم	التعليم/ الوظيفة	خلفية الأسرة	الارتباط السابق	المكان	الوضع الحالى
الشيخ محمد أبو النصر البيانونى :	عالم	أسرة علم/حلب	أمير جمعية أبو ذر	حلب	سكرتير عام الجبهة؛ فى المنفى
الشيخ سالم محمد الحامد:	عالم	أسرة علم	زعيم إخوانى فى حماة	حماة	قتل فى المعارك
على صدر الدين البيانونى :	محام	أسرة علم ، أخو محمد البيانونى	زعيم إخوانى فى حلب	حلب	نائب مراقب الإخوان
عدنان سعد الدين :	معلم وكاتب	الطبقة الوسطى الدنيا	مدرس فى الامارات، قائد المجموعة الشمالية	حماة	المراقب العام للإخوان أحد زعماء الجبهة الثلاثة (قائد تنفيذى) ؛ فى المنفى .

الاسم	التعليم/ الوظيفة	خلفية الأسرة	الارتباط السابق	المكان	الوضع الحالي
سعيد حوى :	عالم ، صوفى	الطبقة الوسطى الدنيا قتل أبوه وأخوه	المجموعة الشمالية	حماة	أحد زعماء الجبهة الثلاثة قائد تنفيذى . المنظّر الأول . فى المنفى .
مروان حديد :	مهندس زراعى	زارع قطن غنى	قائد مجموعة إسلامية مستقلة . تدرب فى منظمة التحرير	حماة	مات فى السجن ١٩٧٦
الشيخ طاهر خير الله :	عالم	زعيم دينى مرموق	—	حلب	غير معروف
عدنان عقلة :	مهندس مدنى ضابط جيش	الطبقة الوسطى ابن خباز	قائد القسم العسكرى	دارة وحلب	فصل فى أبريل ١٩٨٢ . زعيم جماعة منشقة داخل سوريا . نضالى من أتباع مروان حديد .
أمين يكن :	—	—	قائد جماعة نضالية شمالية	حلب	غير معروف
موفّق دعبول :	أستاذ رياضيات جامعة دمشق	الطبقة الوسطى	قائد جماعة دمشق (موالٍ للعطار)	دمشق	غير معروف
دندل جبر :	—	الطبقة الوسطى	منظم الإخوان	دير الزور	عضو القيادة القطرية للإخوان
عبد الستار الزعيم :	طبيب أسنان	تجار	زعيم إخوانى فى حماة	حماة	قتل ، ١٩٧٩
حسنى عابو :	مدرس لغة فرنسية	تجار أغنياء وعلماء	منظم إخوانى فى حلب	حلب	قتل فى المعارك ١٩٧٩
الشيخ عبد الفتاح أبو غدة:	عالم ومدرس	أسرة حرفيين	قائد نضاليين	حلب	غير معروف
عدنان سعيد :	—	—	زعيم فى الشمال	اللاذقية	غير معروف

تنبىء الشواهد المتوفرة أن الجبهة الإسلامية و« الإخوان » نفسها تمر بمرحلة من الانحدار نتيجة للخسائر الفادحة التى عانتها خلال عامى ٨١ – ١٩٨٢ ، بالإضافة إلى عدم الاتفاق على السياسة بين كبار القادة . أحد أسباب الخلاف الرئيسية يتعلق بعلاقة الجبهة بالقوى الخارجية ، خاصة العراق والأردن وإيران . اشترك فى الخلافات « المتشددون » بقيادة عدنان عقلة و« المتفاهمون » بقيادة عدنان سعد الدين . انضمّت جماعة « سعد الدين » إلى التحالف الوطنى لتحرير سوريا الذى يقال إنه يتلقّى دعما من الأردن والعراق ، وذلك بعد أن واجهت كفاحا يائسا ضد النظام . يضم هذا التحالف ، المكون من ١٩ مجموعة مناهضة للأسد : الجبهة الإسلامية والبعثيين الموالين للعراق والناصريين . انتقد عقلة بشدة بيانات سعد الدين المؤيدة للعراق وما ذكر عن لقاءاته فى عمان مع مسؤولين كبار من الولايات المتحدة خلال عام ١٩٨٢[٢٧] . وهذا الانشقاق الواضح فى القيادة الإسلامية ذو علاقة بأوضاع القوى فى الشرق الأوسط . تصالح سعد الدين مع العراق والأردن ينسجم مع حاجة « الإخوان » الماسة إلى تجميع التأييد الخارجى لمواجهة حكومة « الأسد » التى أصبحت على اتفاق مع إيران الشيعية . والحق أن علاقة إيران مع « الإخوان » فى سوريا كانت أمرا مؤسفا ومخيبا للآمال . فعلى حين رحّب « الإخوان » فى حماس بالثورة الإيرانية ، فإنهم أصيبوا بخيبة أمل مريرة بسبب تقارب الخمينى مع « الأسد » وإهمال « آية الله » المتعمَّد للحركة الإسلامية فى سوريا . وعلى الرغم من هذه السياسة الإيرانية ، فقد رفض « عقلة » التصالح مع النظام العراق مما يشير إلى مثالية فى الالتزام والمبادىء لدى شباب « الإخوان » الحركيين الذين يرون فى « صدام حسين » حاكما معاديا للإسلام ، ومن ثم يفضلون – فى صمت – الخمينى[٢٨] . انتهى صراع « عقلة » و« سعد الدين » بفصل الأول من « الإخوان » فى ٢٥ أبريل ١٩٨٢ مما دفعه إلى تشكيل حزب خاص به[٢٩] . ولعل تقلص نشاط العصابات المضادّ للنظام خلال ٨٣ – ١٩٨٤ يرجع جزئيا إلى الانشقاق داخل الحركة الإسلامية .

---

(٢٦) عبد الله ، « الكفاح الإسلامى » ، ص ١٢٣ – ١٢٨ ؛ بتاتو : « الإخوان المسلمون فى سوريا » ، ص ٢٠ . (إ.) .

(٢٧) عبد الله ، « الكفاح الإسلامى » ، ص ١٩٥ . (إ.) .

(٢٨) نفسه .

(٢٩) النذير (يونيه ١٩٨٢) : ٣٢ .

سياســـات النظـــام

عمدت حكومة « الأسد » ، كى توقف مدّ النضالية الإسلامية ، إلى الجمع بين سياستى التودد والقمع ، الأمر الذى مكّنها من البقاء أطول من أى نظام آخر . والواقع أن « الأسد » ، رغم اعتماده على طائفته العلويين ، قد وجّه جهده ليصبح رئيسا للسوريين جميعا . تضمّنت مبادرته الرئيسية البدء فى سياسة « التصحيح » ١٩٧١ والاستمرار فى تهدئة السياسات الاشتراكية[٣٠] . بل إن « الأسد » قد كرّر على العناصر الإسلامية عروضا للوصول إلى مصالحة . وفى الوقت نفسه واجه النظام اتهام الإسلاميين له بـ « الطائفية العلوية » بإبراز تعيين موظفين سنّيين فى مراكز بارزة . من هذه المراكز : رئيس الوزراء ووزير الدفاع ورئيس الأركان . كذلك ، كانت الحكومة حساسة تجاه اتهام الإسلاميين للنصيريين (العلويين) بأنهم ليسوا مسلمين ولا أهل ذمة (نصارى أو يهود) ؛ وإنما هم كفار ومشركون . هذه الوصمة الصريحة للعلويين قد دفعتهم إلى تأكيد شرعيتها كفرقة مسلمة ، وإلى توثيق وضعها الإسلامى من السلطات الدينية من إيران الشيعية الإثنا عشرية[٣١] . وهذا العامل الدينى المذهبى قد قوّى الروابط الوثيقة الاقتصادية والاستراتيجية التى تعمقت بين إيران وسوريا فى الثمانينات .

على أى حال ، لقد وقف الرئيس فى ثبات وعزم على الاحتفاظ بالسلطة والمحافظة على نظام البعث : طابعه العلمانى ومذهبيته . وفى الوقت ذاته اتبع « الأسد » سياسة نضالية تجاه إسرائيل والغرب باسم القومية العربية . كان غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ بركة ولعنة معا على نظام « الأسد » . فتصدّيه لقوات إسرائيل المتفوقة فى لبنان جعله يضع نفسه فى طليعة الكفاح العربى القومى ، لكن هزيمة الطيران السورى قضت على مصداقية « الأسد » كقوة تهدد إسرائيل . وفى

---

(٣٠) بشأن سياسة الأسد التصحيحية ، انظر : اليزابيث بيكارد ، « سوريا من ١٩٤٦ إلى ١٩٧٩ » ، فى « سوريا اليوم » تحرير أندريه ريموند (باريس ، ١٩٨٠) ، ص ١٦٨ – ١٧٠ . (ف.) .

(٣١) عبد الله ، « الكفاح الإسلامى » ، ص ٤٢ – ٤٨ ، ٢٧١ . (إ.) .

منتصف ١٩٨٣ استعاد الرئيس بعض الدعم الشعبى فى سوريا وفى العالم العربى من خلال قيامه وحده بالتصدى للاتفاق الإسرائيلى – اللبنانى المؤيَّد من أمريكا . كذلك ، فإن موافقة السوفييت على إعادة تسليح الجيش السورى ومدّه بنظام حديث للدفاع الجوّى يضم صواريخ سام – ٥ المضادة للطيران والبعيدة المدى ، كان له أثر فى إضفاء شيء من المصداقية على رفض الأسد سحب قواته من لبنان . أيضا ، زاد من مركز « الأسد » ونفوذه إلى مدى لم يُسبَق ذلك الانسحاب الذليل للقوات الأمريكية من لبنان(*) وهزيمة الجيش اللبنانى ذى التدريب الأمريكى . والواقع ، أن وقفة « الأسد » فى لبنان ونجاحه فى فرض إرادته على هذا البلد رغم اعتراضات إسرائيل وأمريكا ، انتزعا إعجاب الكثيرين من القوميين العرب . وعلى الرغم من أن نظام « الأسد » البعثى القومى العلمانى يسير فى خط معارض للتيار الإسلامى السائد فى العالم العربى ، فإن الرئيس قد نجح فى استبقاء السلطة وجَعْلِ نفسه عاملا أساسيا فى النزاعات اللبنانية والعربية وإسرائيل . ويترتب على هذا أن الوصول إلى السلطة لن يتأتى للجبهة الإسلامية طالما بقى التحالف الطائفى فى الجيش والحزب قائما . ولم يكن مرض الرئيس فى نوفمبر ١٩٨٣ ، وما نتج عنه من مواجهة بين القوى داخل الطائفة العلوية ، كافيا للتنبؤ بما سيصيب استقرار النظام . لكن الرئيس ، منتصف ١٩٨٤ ، قدر على استعادة السيطرة من خلال نفى ثلاثة من كبار المعارضين ومنهم أخوه « رفعت الأسد » . وإذا قدر للأسد أن يغادر الساحة ، فمن الممكن أن يتعرض البعث السورى لانقسام داخلى من أجل الصراع على السلطة . ومثل هذا الأمر سيكون ظرفا مناسبا لعودة الجبهة الإسلامية إلى الظهور . والنتيجة ، أن احتمال عودة الانبعاث الإسلامى متوقف على بقاء « الأسد » وقدرته على مواجهة مشكلات سوريا الاقتصادية والتحديات فى لبنان والوضع العربى – الإسرائيلى بشكل عام . وحتى فيما بعد الأسد ، فقد يجد الإسلاميون صعوبة فى الوصول إلى السلطة . فالحق أن « الإخوان » سيجدون من الصعب أن يقنعوا الأقليات النصرانية والدروز والإسماعيليين والأكراد والعلويين فى سوريا ، بالإضافة إلى كثيرين من السنّة ، بأن النظام الإسلامى سيخدم مصالحهم أكثر من النظام البعثى .

(*) المعروف أن الانسحاب الأمريكى ، بل والإسرائيلى ، إنما جاء نتيجة المقاومة الإسلامية والوطنية ، وليس بسبب قوات « أسد » . ولكن هكذا تُركب الموجة وتُسرق الثمرة لحساب العملاء .

٨ – العراق : الأصولية الشيعية فى مواجهة البعث

تمثل الحركة الأصولية فى العراق نوعية خاصة من الحركية الإسلامية فى المحيط العربى نتيجة لصبغتها الشيعية . إنها حركة المعارضة من الأغلبية الشيعية الاثنا عشرية فى العراق (٥٥٪) تجاه النظام البعثى المرتكز على الأقلية العربية (٢٠٪) . وفى هذا الصدد يحمل الكفاح الشيعى فى العراق شبها قويا بالنضالية ذات القاعدة السنيّة فى سوريا ضد نظام « الأسد »(*) .

الخلفية التاريخية وظروف الصـــراع

تَشَكَّلَ تطوّرُ الأصولية الشيعية نتيجة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية العراقية ، والتأثيرات المنبعثة من إيران وسوريا . كانت نتيجة هزيمة الدولة العثمانية وتسويات ما بعد الحرب أن وضع العراق تحت الانتداب البريطانى . وقد عارض الشيعةُ والسّنةُ النظامَ الجديدَ . فى عام ١٩٢٠ قادالمجتهد الشيعى محمد تقىّ الشيرازى انتفاضة ضد البريطانيين فى محاولة فاشلة لطلب الاستقلال . وقد كانت بريطانيا خلال مدة الانتداب تميل إلى تفضيل الأقلية السنية على الشيعة . وفى عام ١٩٢١ اعتلى عرش العراق الملك فيصل فأصبح الشيعة تحت حكم أسرة هاشمية سنية ذات أصل مكىّ . لكن الملك اتبع سياسة مصالحة مع الطائفة الشيعية وقرّر نسبة لتمثيل الشيعة فى كل التشكيلات الوزارية . فشغل محمد الصدر وفاضل

(*) هناك فارق جوهرى بين وضع السنة فى سوريا والشيعة فى العراق ، سواء من حيث طبيعة النهج الإسلامى لكل منهما ، وطبيعة الحكم المتسلط عليهما ، ونسبة أغلبية كل منهما . وهناك شك فى أن تصل نسبة الشيعة فى العراق إلى ٥٥٪ ؛ والبعض يراها فى حدود ٣٠٪ فقط . فقد اندمجت بعض القبائل والجماعات فى تقاليد الشيعة وهى تجهل حقيقة الفرق بين السنة والشيعة .

جمالى وصالح جبر ، وهم شيعة ، منصب رئيس الوزراء . وعلى الرغم من المشاركة على هذا المستوى الرفيع ، فإن الدور السياسى للشيعة فى العراق ظل هامشيا حيث سيطر نورى السعيد والأمير عبد الإله وأمثالهما من السنّة على أمور السياسة حتى ثورة ١٩٥٨ . كذلك لم يكن للشيعة فى العراق دور فعّال فى الجيش وانقلاباته المتكررة ضد السلطة المدنيّة[١] .

وضعت ثورة ١٩٥٨ نهاية قاسية للحكم الهاشمى . ومن المهم ، أنّ من المحتمل أنّ قائدها ، اللواء عبد الكريم قاسم ، قد أخفى أصله الشيعى (عن طريق التَّقِيّة) حين تولى رئاسة العراق . ومن أجل مواجهة مطالبات الضباط الناصريين بانضمام العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة ، قام « قاسم » بسجن العقيد عبد السلام عارف ، الشخصية التالية له فى القيادة وسمح بتشكيل الأحزاب السياسية . وكانت النتيجة أن تشكل « حزب الدعوة الإسلامية » كتعبير سياسى عن الطائفية الشيعية . بعد الانقلاب العنيف الذى أطاح بـ « قاسم » فى فبراير ١٩٦٣ ، جاء عهد غير مستقر بقيادة العقيد « عارف » الناصرى والبعثيين الموالين لمصر . وقد أدى الصراع التالى داخل البعث إلى فصل رئيس الوزراء اللواء أحمد حسن البكر وزملائه البعثيين . مات « عارف » فى حادث فى أبريل ١٩٦٦ فتولّى الرئاسة أخوه الأكبر ، اللواء عبد الرحمن عارف ، الذى أطاح به البعثُ فى يوليو ١٩٦٨ . أظهر آل « عارف » توجّها ناصريا أثار مخاوف الشيعة . وجاءت المخاوف من احتمال أن يصبحوا أقلية فى دولة عربية سنّيّة واحدة يرأسها عبد الناصر[٢] . بدأ قمع مظاهر معارضة الشيعة منذ ١٩٦٤ حين أنشأت الحكومة فرعا خاصا للأمن لمواجهة نشاطهم . شهدت السَّنَةُ نفسُها وصولَ روح الله الخمينى ، رجل الدين الإيرانى المنفىّ والذى اجتذب جمهورا كبيرا كمعلم دينىّ .

---

(١) بين ١٩٢٠ و١٩٣٦ كان فى الوزارة أربعة عشر عضوا شيعيا ؛ انظر : محمد ا . طربوش ، « دور العساكر فى السياسة » (لندن ، روتْلِدْج وكيجان بول ، ١٩٨٢) ، ص ٤٥ – ٤٧ . وبشأن السياسة العراقية ، انظر : ماجد خدورى ، « العراق المستقل ، ١٩٣٢ – ١٩٥٨ » (لندن ، ط/جامعة أكسفورد ، ١٩٦٠) . (إ.) .

(٢) إديث و ا . ف . بنروز ، العراق (لندن ، كروم هِلْم ، ١٩٧٨) ، ص ٣١٩ . (إ) .

جعل استيلاء البعث على السلطة ١٩٦٨ موقف الشيعة أكثر قلقا . سيطر على النظام الجديد البعثيون العراقيون واللاجئون من « الجناح اليميني » للبعث السورى بقيادة « عفلق » الذى فقد السلطة فى فبراير ١٩٦٦ . وقد تميّز النظام الجديد بأربعة ملامح فى السلوك والسياسة :

١ – توجّه قوميّ عربى علمانى .

٢ – شعور عميق من الشك فى الجميع وتصميم شديد على ألا يحدث انقلاب ضدهم .

٣ – وَلَعٌ باختيار المسؤولين الأساسيين من « تكريت » ، مسقط رأس الرئيس حسن البكر ونائبه صدام حسين ، مع تركيز خاص على عائلة الأخير من منطقة « العوجا » فى تكريت .

٤ – سياسات اقتصادية وسكانية قادت إلى سوء توزيع الدخل ومصاعب بين الطبقات الفقيرة ، خاصة الشيعة .

كان لكل من سياسات البعث هذه أثر فى تنفير الشيعة قادةً وجمهورا . فالتوجه العلمانى والعربى للنظام كان يشكل تهديدا مزدوجا : فالنظام – كدولة علمانية – يُنْظَر إليه على أنه « كافر » ، كما أن مخططات البعث للوحدة العربية تعتبر تهديدا لوضع الأغلبية الشيعية . أضف إلى هذا ، أن خوفَ البعثِ العميقَ من الثورة المضادة والتزامه المذهبيّ العلمانيّ كانا عاملَيْ ضغط اضطراه إلى القيام ببرامج واسعة لِمذْهَبَة الجماهير مع العمل على تذويب من يتصورهم أعداء له . وبهذا المفهوم كان الشيعة هدفا طبيعيا ، خاصة فى ضوء القاعدة الطائفية العنيفة داخل المجتمع السنّى . فبينما كان الشيعة يجنّدون فى الحزب وفى الجيش ، كانت القيادة العليا مركزة بقوة فى أيدى قلة مستغلة من التكريتيّين السنّة تتمركز حول صدّام حسين . وأخيرا ، فإن سياسات البعث الاجتماعية الاقتصادية اتجهت إلى زيادة تدنى المستوى الاقتصادى لطائفة الشيعة[٣] . فعلى الرغم من تزايد ثراء العراق من

---

(٣) حنا بتاتو ، « الحركات الشيعية السرية فى العراق : الخصائص والأسباب والتوقعات » ، مجلة الشرق الأوسط ٣٥ : ٤ (خريف ١٩٨١) : ٥٨٠ – ٥٨١ . (إ.) .

النفط ، فإن جماهير الشيعة فى الجنوب وفى بغداد بقيت فى حال من الحرمان النسبىّ . هذه الجوانب من الأزمة كانت هى المسؤولة عن ظهور الأصولية الشيعية فى السبعينات .

تحليل الأصوليـة الشيعيـة

خلق وجود طائفتين شيعيتين كبيرتين فى إيران والعراق علاقة تضامن بين المؤسسات الدينية فى البلدين . فالمؤمنون ورجال الدين من الإيرانيين ، ظلوا – عبر القرون – مشدودين إلى المدن الثلاث المقدسة عند الشيعة والموجودة فى العراق : النجف وكربلاء والكاظمية . وبالمقابل ، يتطلع شيعة العراق إلى أن تؤيدهم الأغلبية الشيعية فى إيران تأييدا سياسيا لمعادلة وزن حكامهم السنة فى بغداد . وهذا الوضع قد جعل من شيعة العراق أداة جاهزة لأى تخريب إيرانى فى عهد كل من الشاه والخمينى . ومن هنا ، كان نفوذ إيران عاملا مهما فى التطور المذهبى والتنظيمى للنضالية الشيعية فى العراق .

ظهرت أعداد وفيرة من الجماعات تمثل المقاومة الشيعية للسلطة البعثية ، ولكثير منها علاقات مع إيران (ملحق – ١) . مثلا ، جمع « الحزب الفاطمى » بقيادة « الخراسانى » بين مثقفين من الشيعة وضباط من أصول عربية وإيرانية للإطاحة بنظام البعث فى مطلع السبعينات . لكن أهم مجموعة ثورية هى « حزب الدعوة الإسلامية » الذى يمثل صلب المقاومة الشيعية . ثمة بعض الخلافات حول أصول « حزب الدعوة » . ويبدو أن الحزب تكوّن على يد آية الله محمد باقر الصدر عام ٥٨ – ١٩٥٩[٤] . كان حزبا جماهيريا يقوده شباب مثقفون من رجال الدين ممن تأثروا بـ « باقر الصدر » ، المجتهد الأول ذى الشخصية الآسرة . كان معظم أعضائه من الطبقتين الوسطى والدنيا ممن يتركزون فى بغداد والمدن

---

(٤) فؤاد كاظم : « أرقام وآراء حول نظام البعث فى العراق » (طهران ، ١٩٨٢) ص ٢٦٢ – ٢٦٣ . لكن ، تبعا لـ « بتاتو » ، تأسس الحزب أواخر الستينات دون مشاركة الصدر ، بزعم بعض الشيعة أن المؤسس الحقيقى هو المرجع محسن الحكيم الطباطبائى . انظر أيضا : « طريق الحق » (أبريل ١٩٨٢) : ٣ – ٤ .

المقدسة والجنوب . كان الحزب يقوم بدعوته من خلال المساجد والمدارس الدينية تحت إشراف « الحوزة الدينية » فى النجف . وكان أعضاؤه النشطون يرتبطون فى « حَلْقات » مكونة من « أُسَر » تعمل طبقا لمبدأ « التنظيم الخيطى » الذى يجعل معرفة العضو الفرد بزملائه المشاركين محصورة فى دائرة مغلقة .

لم يتجه الحزب إلى أنشطة العنف إلا بعد ظهور البعث ١٩٦٨ ، لأنه اعتبر السياسات العلمانية للحكومة مضادة للإسلام . من هذه السياسات بيع لحم الخنزير وإخضاع المدارس الإسلامية لسيطرة الدولة وإيقاف المطبوعات الإسلامية وتعويق تعمير المساجد واضطهاد رجال الدين الشيعة . وقد أثارت هذه السياسة شيعة العراق أيما إثارة ودفعتهم إلى التجمع وراء الحزب فى سلسلة من المواجهات العنيفة مع النظام . وفى ١٩٧٤ تحول الاحتفال بذكرى قتل الإمام الحسين إلى احتجاجات سياسية غاضبة . وقد ردّت الحكومة باعتقالات فردية وجماعية وبالقمع . وقد وصلت استثارة الحزب ذروتها أثناء احتفال الشيعة بمحرم فى مطلع ١٩٧٧ ، حين حاولت قوات الأمن التدخل فى المسيرة فى منتصف المسافة بين النجف وكربلاء . ردّت جماهير الشيعة فى غضب وهاجمت مركزا للشرطة وردّدت شعارات معادية للنظام(٥) . وقد أعقبت ذلك اعتقالات لعدد من الشيعة من الشباب ومن الكبار ، وجرت محاكمات وإعدامات وحَبْس فى سجن « رقم واحد » سيىء السمعة .

اتجه الحزب والطائفة الشيعية فى السبعينات إلى التطرف بسبب الثورة الإسلامية فى إيران . طرد « آية الله روح الله خمينى » عام ١٩٧٨ بعد سنوات عاشها منفيا فى النجف ، وذلك نتيجة للتقارب العراقى – الإيرانى عام ١٩٧٥ . وإذا كان يقال إن « خمينى » كان يزدرى الحزب بسبب ارتباطه بإيران ، فليس ثمة شك فى علاقات القرابة والتعاون الوثيق بين آية الله وكبار رجال الدين الشيعة فى العراق . ولّد نجاح الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩ موجة جديدة من القلاقل الشيعية . فطالبت مواكب الاحتفال بمحرم عام ١٩٧٩ بإصلاحات اجتماعية

---

(٥) بتاتو ، « الحركات الشيعية السرية » ، ص ٥٩٠ . (إ.) ؛ « الجهاد » (١٩٨٣/٣/١٤) : ٨ .

وبإقامة دولة إسلامية . وقد نظرت حكومة العراق إلى الحزب ، فى ضوء التشجيع الواضح من الخمينى للنضالية الشيعية ، على اعتبار أنه « طابور خامس » يهدف إلى توحيد العراق وإيران . كان ردّ فعل الحكومة هو إلقاء القبض على « باقر الصدر » فى يونيه ١٩٧٩ فأثار ذلك مظاهرات واسعة فى منطقة « الثورة » الشيعية فى بغداد فقام النظام بسحقها .

أثار حجم القمع انشقاقا داخل مجلس قيادة الثورة ، الأمر الذى يحتمل أنه أدّى إلى إعدام اثنين وعشرين من كبار المسؤولين البعثيين عقب تولى صدام حسين للرئاسة فى يوليه ١٩٧٩ . أعلن آية الله « الصدر » تأييده المطلق لثورة إيران الإسلامية وتشجيعه للمعارضة المسلّحة ضدّ البعث ، مما دفع النظام إلى توجيه تهمة الخيانة بالتخطيط لإقامة دولة شيعية فى العراق . أخذ « باقر الصدر » ، ومعه أخته الحركية « بنت الهدى » ، إلى بغداد وأعدما فى أبريل ١٩٨٠[٦] . وقد أضاف موت أبرز مراجع الشيعة هذا شهيدا جديدا ذا مدلول رمزىّ قوىّ إلى بناء قديسى الشيعة الإثنا عشرية[٧] .

---

(٦) من أجل تقرير شيعىّ عن القهر ، انظر : كاظم ، « أرقام .. » ص ١٤٢ – ١٥٥ .

(٧) يظهر نَفَس باقر الصدر واضحا على كل المطبوعات الشيعية المطبوعة فى إيران بالعربية .

باقر الصـــدر والارتباط بإيـــران

تحوم الشكوك حول حقيقة أدوار كل من باقر الصدر والخمينى فى التمرد الشيعى وارتباطاته بالثورة الإسلامية فى إيران . فبينما يؤكد أحد المؤلفين أن لا تدخّل لباقر الصدر والخمينى فى الحزب[٨] ، تنسب بعض المصادر الشيعية إليهما أدوارا رئيسية فى الحركة . فكلا رَجُلَى الدين يرمز إلى المعارضة الشيعية الصلبة للبعث . أصرّ باقر الصدر ، كمنظر دينى ملتزم ، على رفض توسّلات صدام حسين ، إذ أنه يعتبر التعاون مع النظام « حراما » بحكم القانون الإسلامى ، وذلك بسبب طبيعة النظام العلمانية والقمعية .

والدور الكبير الذى قام به باقر الصدر ، المنظّر الأول والقائد المُلْهِم لشيعة العراق ، فوق كل تساؤل . وبفضل كتاباته الواضحة ، بالإضافة إلى ما عُرف به من شجاعة واستقامة ، أصبح منبع الحركية الشيعية العراقية[٩] . ولا يقل عن هذا أهمية دور باقر الصدر كأحد الآباء الفكريين للدستور الإسلامى الإيرانى ، وإن يكن هذا الدور مجهولا نسبيا . والواقع أن الدلائل تشير إلى أن « آية الله » العربى هذا قد ساهم بشكل ملموس فى تشكيل الإطار المذهبى للنظام الإسلامى فى إيران . وتفيد التقارير أن باقر الصدر والخمينى كانا على اتصال منتظم قبل الثورة الإيرانية وبعدها . وعقب عودة الخمينى المظفرة إلى طهران فى أول فبراير ١٩٧٩ ، أرسل باقر الصدر إلى زميله ست دراسات عنوانها : « الإسلام يوجه الحياة » تضمنت شرحا لنظرية الإسلام فى بناء « الأمة » ، والدور القيادى للمرجعية الدينية ، وتوزيع السلطات التنفيذية والتشريعية ، والخطوط العريضة للنظرية الاقتصادية الإسلامية . وقد ظهرت أولى هذه الدراسات على شكل تفسير توجيهى لهيكل الدستور الإسلامى الذى صيغ فى إيران فى عام ١٩٧٩ ، ولأسسه الفقهية . كما أرسل باقر الصدر وثيقة مماثلة لمجموعة من علماء الشيعة فى لبنان ردا

---

(٨) انظر : بتاتو ، « الحركات الشيعية السرية » ، ص ٥٩٠ .

(٩) « الإمام الشهيد محمد باقر الصدر » ، طريق الحق (أبريل ١٩٨٢) : ٥ – ١٢ .

على تساؤلاتهم حول تشكيل الدولة الإسلامية الوليدة فى لبنان . ويمكن تلخيص فكره السياسى فيما يلى :

١ – الله هو مصدر جميع السلطات والتشريعات والثروات . وهذا المبدأ يحرر الإنسان من العبودية للآخرين ومن استغلالهم .

٢ – الأمة هى ممثّل الله على الأرض ؛ فهى مسؤولة أمام الله عن أداء أمانته .

٣ – الشريعة الإسلامية هى مصدر التشريعات والدستور نفسه .

٤ – « المراجع » الراشدون هم المعبرون تشريعيا عن الإسلام ، والمرجع الأعلى هو النائب العام أو الممثل للإمام (الغائب) . وعلى هذا ، فإن « المرجع » يعهد إليه بالوظائف المهمة التالية :

(أ) هو الممثل الأعلى للدولة والقائد الأعلى للقوات المسلحة .

(ب) هو الذى يقرر شرعية المسائل الدستورية طبقا للشريعة الإسلامية ، ويقرّر دستورية القوانين التى تضعها الجمعية التشريعية (أهل الحل والعقد) التى ينتخبها الشعب .

(ج) هو الذى يُقرّ تسمية المرشحين للانتخاب بحكم أنه رأس السلطة التنفيذية .

(د) يُعيّن محكمة عليا لمنع الانحراف ، ومجلسا للمظالم لإنصاف المظلومين ، ومجلسا من مئة من علماء الدين والخطباء والمفكرين الدينيين لإدارة عمل « المرجعية »[١٠] .

والموقع المتميز لـ « المرجع » كما حدّدته تصورات باقر الصدر عن الدولة الإسلامية يحتّم اختيار شخصية مثالية . وفى رأى باقر الصدر أن مواصفات « المرجع » المنتظر يجب أن تشمل التقوى والإخلاص والقدرة على الوصول إلى

---

(١٠) كاظم ، « أرقام » ، ص ٢٦٠ – ٢٦١ . انظر أيضا : « استشهاد الإمام محمد باقر الصدر من منظور حضرى » ، (لبنان ، ١٩٨١) ، ص ٣٥ – ٣٨ ؛ ومحمد باقر الصدر ، « لمحة فقهية تمهيدية عن مشروع دستور الجمهورية الإسلامية فى إيران » ، (قم ، ١٩٧٩) ، ص ١٨ – ٣٥ .

الحكم (الشرعى) المستقل والعمل به . وحيث أن « المرجعية » عهد إلهى للحفاظ على شهادة النبى والأئمة وخلافتهم ، فإنها تجسّد تقواهم وعصمتهم المطلقة . وإذا كان « المرجع » غير معصوم ، فعليه أن يجتهد فى التقوى[١١] . وتعكس مؤلفاته التزاما مذهبيا واضحا بالدولة الإسلامية وبالمحافظة عليها . ولابد أنه كان يحظى بتأييد واسع بين رجال الدين وطلاب العلم الدينى والخطباء والمفكرين الدينيين . وأخيرا ، فإن أى مرشح للمرجعية يجب أن يرشّحه « مجلس المرجعية » ؛ وفى حالة وجود ترشيح عدد من الأفراد الأكْفاء لهذا المنصب ، فإن اختيار « المرجع » الأعلى يتقرر عن طريق الاستفتاء العام .

كانت صياغات باقر الصدر النظرية والسياسية ذات أثر قوى فى تأييد موقف الخمينى بشأن الدور المسيطر للفقيه فى الدولة الإسلامية . حقا ، كان باقر الصدر يسعى ، من خلال ما يكتب ، إلى التدخل فى الصراع السياسى الدائر فى إيران عام ١٩٧٩ بين مؤيدى الخمينى ومعارضيه فى إصراره على دستور يقرر ولاية الفقيه . فدور المرجع ، عند باقر الصدر و« ولايه الفقيه » عند الخمينى مترادفان نظريا وتطبيقيا . وهما يمثّلان قمة بارزة فى تطور الفكر السياسى الشيعى وتطبيقه الذى بدأ متأخرا حوالى منتصف القرن التاسع عشر .

ومن الواضح أن باقر الصدر قد قدّم نظرية متكاملة للثورة السياسية والاجتماعية من أجل إقامة حكومة إسلامية تحقّقت على يد الخمينى . وينظر الشيعة إلى باقر الصدر على أنه حجّة فى مستوى « السيد المرتضى » (ت – ١٠٤٣) والشيخ أبو جعفر الطوسى (ت – ١٠٦٨) والعلامة ابن المطهر الحلّى (ت – ١٣٢٥) . ولم يكن من قبيل المصادفة أن تشير إذاعة إيران العربية إلى باقر الصدر على أنه « خمينى العراق » ؛ وقد أثار إعدامه حزنا قوميا فى العراق .

---

(١١) محمد باقر الصدر ، « خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء » (قم ، ١٩٧٩) ، ص ٢١ – ٢٧ ، ٤٩ – ٥٥ .

(١٢) طريق الحق (أبريل ١٩٨٢) : ٣ ، ٢٠ – ٢١ .

سياسة النظام ومستقبل الشيعـــة

ثمة عدة عوامل تقف وراء فشل الثورة الشيعية فى العراق ، على عكس نجاحها فى إيران . كان البعث متماسكا إلى حد ما ، ولقى تأييداً من الأقلية السنّية التى خشيت قيام حكم شيعى . زد على هذا ، أن الحزب لا يملك جهازا دينيا كالذى لدى الثورة الإيرانية ، ومن أسباب ذلك صغر حجم مجموعة رجال الدين الشيعة فى العراق نسبيا[١٣] . كما كان الفشل الشيعى نتيجة لسياسة صدام حسين التى جمعت بين القمع الشامل وإعطاء الحوافز للقادة والأفراد الشيعيين . وقد توجه البعث فى دعاياته إلى استثارة المشاعر العربية للسكان الشيعة ، وفى نفس الوقت أكثر من ترديد إيمانه بـ « روح الإسلام » أكثر من شعائره[١٤] . وبينما أعلن صدام حسين ميلاد على بن أبى طالب عيدا قوميا ، قام بزيارة النجف وأعلن نفسه أنه من نسل الرسول (ﷺ) . وقد نجح النظام – عن طريق إنفاق مبالغ كبيرة على المساجد والمراكز الدينية الشيعية (الحسينيات) – فى تقريب بعض رجال الدين الشيعة ، على الرغم من أن كثيرين من كبار رجال الدين قد رفضوا التعاون الواضح مع البعث[١٥] . لم يتولّ « المرجع » الأعلى ، آية الله العظمى « أبو القاسم الخوئى » ، القيام بالدور الحركى لباقر الصدر ، و« المرجع » الأعلى ، الذى تفيد التقارير أنه تحت الاقامة الجبرية فى بيته ، فى الثمانين من عمره ، وهو لا يقدر ، أو لا يحب ، أن يعبّر بشكل واضح عن معارضته أو تأييده للبعث . وحين هاجم العراق إيران فى سبتمبر ١٩٨١ ، كانت معارضة الشيعة ضعيفة بالفعل نتيجة للتأثير المزدوج لسياسة الدولة القائمة على القمع والاحتواء . عملت دعايات

---

(١٣) بتاتو ، « الحركات الشيعية السرية » ، ص ٥٩٠ – ٥٩١ . (إ.) .

(١٤) فيليب روشوت : « الحُمّى الكبرى فى العالم الإسلامى » (باريس ، سيكومور ، ١٩٨١) ، ص ٦٢ . (ف.) .

(١٥) بتاتو ، « الحركات ... » ، ص ٥٩١ – ٥٩٢ .

النظام ، وكذلك الحرب ، على تعميق التصدعات العِرقية بين العرب والفرس . عارض بعض الشيعة ربط قضيتهم بالثورة الإيرانية وسط التوترات القائمة بين العرب والفرس من رجال الدين الشيعة[١٦] . وفى الوقت نفسه نجحت سياسة صدام حسين ، ببذل عطايا مادّية سخية ، فى كسب عدد من كبار الشيعة ، منهم « كليدار سيد حسين » المشرف على قبر « علىّ » فى النجف ، والإمام « على كاشف الغطاء » من كربلاء ، والشيخ « على الصغير » من النجف . كذلك ، فإن الشاعر الشيعى الشهير « العطايشى » قد تلقى تكريم الدولة . كما تعكس تركيبة النخبة السياسية محاولات الرئيس صدام الحصول على ولاء الشيعة ، فحين نقارن خلفيات الوزراء فى حكومتى ١٩٧٩ و١٩٨١ يظهر لنا أن ثمة تزايد فى تمثيل الشيعة . كذلك ، فإن عضوية الشيعة فى القيادة القطرية لحزب البعث تصل إلى أربعة – وهى نسبة عالية . ومن بينهم عدد من الشيعة البارزين ممن لهم ارتباط عن قرب بصدام حسين : نعيم حداد رئيس مجلس الشعب ؛ سعدون حمادى وزير الخارجية وراجى فارون ، من كبار الموظفين فى البعث .

من الواجب ألا نبالغ فى القيمة السياسية لزيادة نسبة تمثيل الشيعة . الوزراء الشيعة فى الحكومة الحالية يمثلون أقلّية تكاد تساوى نسبة الأكراد . كما أن الشيعة قد أعطوا حقائب وزارية غير حساسة مثل الإسكان والصحة والتجارة . أما نسبة الشيعة فى قيادة حزب البعث فهى أعلى قليلا . أما السنة العرب فهم المسيطرون فى كل من الحزب والحكومة ، وكذلك فى قوات الأمن والقيادات العسكرية .

لم يتحسن الموقف الاقتصادى للشيعة ، ويقال إنهم ، خاصة فى المساجد ، موضوعون دائما تحت رقابة رجال المباحث[١٧] . لقد تمزقت الحركة الثورية ، ولم يعد لها قائد واحد يملأ فراغ باقر الصدر . وقد ظهرت عدة منظمات جديدة تتحدى البعث (انظر : ملحق – ١) . كُشفت عام ١٩٧٩ جماعة صغيرة – باسم « المجاهدون » – نفسَهامن خلال عمل مسلح . ومع اعترافهم بأنهم قد

---

(١٦) السابق ، ص ٥٩٤ .

(١٧) روشوت ، « الحمى الكبرى » ، ص ٦٢ . انظر ايضا ، صوت الرافدين (ديسمبر ١٩٨٢) : ٥ – ٩ .

تأثروا بباقر الصدر ، فإن هؤلاء « المجاهدين » – كما يقال – هم القيادة الدينية التى تأخذ طابع إيران[١٨] ، وذلك على الرغم من أن البعض يعتبر هذه الجماعة هى الجناح النضالى لحزب الدعوة . وهناك جماعة أخرى من الحزب انشقت عام ١٩٨٠ باسم « منظمة العمل الإسلامى » ويقودها الشيخ محمد الشيرازى وهادى المُدَرِّسى . وتميل هذه الجماعة إلى معارضة المغامرات المتعجلة ، وتفضل نشاط النفَس الطويل[١٩] . وهناك جماعة ثالثة « جماعة العلماء » بقيادة آية الله « محمد باقر الحكيم » المنفى ؛ وهذه الجمعية الدينية تؤدى دور المظلة لتغطية مختلف الجماعات الشيعية النضالية .

ورغم هذا كله ، لا يزال حزب الدعوة أقوى هذه الحركات الشيعية ، فهو لا يزال يجتذب عناصر من الرتب الدنيا فى الجيش ، ومن الطلاب والموظفين ورجال القبائل وقد أفاد مصدر شيعى أواخر ١٩٨٢ أن معدل الخروج من الجيش العراقى قد تجاوز ٣٥٪ ، ومعظمهم كما هو مفترض من الجنود الشيعة[٢٠] . ولا يزال الجناح العسكرى للحزب – « الجيش الثورى لتحرير العراق » – يعمل ضد النظام بمساعدة من إيران وسوريا كما تفيد التقارير . وهو يتلقى الدعم من « الجبهة الإسلامية المتحدة » ضدّ صدام حسين ، والتى يمثلها تحالف بين الحزب والنظام السورى وحركة « أمل » اللبنانية والجمهورية الإسلامية فى إيران . كذلك ، أنشأت الحركة الشيعية السرية ، مؤخرا ، روابط مع الجماعات الكردية والحزب الشيوعى العراقى ، وكلاهما يعارض النظام . وفى الوقت نفسه ، فإن « المجلس الأعلى للثورة الإسلامية » ، ومركزه إيران ، ما زال يعمل بمثابة الهيئة العليا لتوجيه الكفاح الشيعى فى العراق . وهذا المجلس بقيادة آية الله الحكيم يتكون من العلماء العراقيين والأفراد العاديين الذين فرّوا إلى إيران فى مطلع ١٩٨٠[٢١] . ويحاول المجلس الأعلى، من خلال مطبوعاته وإذاعاته، أن ينفخ القوة فى الحماس الثورى لشيعة العراق[٢٢] . ويبدو أن الحزب هو أهم عنصر فى المجلس الأعلى ،

---

(١٨) بتاتو ، « الحركات ... » ، ص ٥٧٨ .
(١٩) السابق ، ص ٥٩٣ .
(٢٠) صوت الرافدين (ديسمبر ١٩٨٢) : ٥ – ٩ .
(٢١) السابق ، ص ٢ – ٤ .
(٢٢) الجهاد (سبتمبر ١٩٨٢) .

وأنه قد أنشأ علاقات مع المتعاطفين من الجماعات السنيّة فى العالم العربى وجماعات الطلاب الشيعة فى أوربا والولايات المتحدة . وتعكس دعايات الحزب قضايا الثورة الإيرانية : العداء لأمريكا ، والمعارضة الشرسة للأسرة السعودية وللحكومة المصرية . ويكشف أحد الموضوعات الرئيسية فى دعايات الحزب اهتمامه الخاص بالوجود المصرى فى العراق . وينبع هذا الاهتمام من سياسة البعث فى استيراد ما يزيد على مليون مصرى من الفلاحين والخبراء العسكريين لهدف مزدوج : لتعديل التفاوت السكانى بين الشيعة والسنة فى العراق ، ولتوفير محاربين للجبهة الإيرانية[٢٣] . وهذه « المشاركة الصامتة » بين صدام حسين ونظام السادات – مبارك تقف معارضة لمصالح إيران والشيعة العراقيين . ومن هنا ، طلب رجال الدين الشيعة من عمر التلمسانى ، زعيم « الإخوان المسلمين » المصرية ، تأييد الثورة الإسلامية فى إيران والعراق[٢٤] . وفى نفس الوقت ، فإن أصوليّى العراق السنة ، بقيادة « الإخوان المسلمين » ، قد امتنعوا عن معارضة نظام البعث .

أثر الحرب الإيرانية – العراقيـــة

استمرت الحركة الشيعية فى العراق تبدى نضاليةً خلال عامى ٨٢ – ١٩٨٣ . لكن احتمال حدوث انقلاب شيعى ضد البعث يبدو غير وارد فى ضوء قدرات النظام التقنية والتنظيمية على السيطرة . يمكن أن تنجح الحركة الشيعية فى العراق فى حالة حدوث اختراق إيرانى كبير على جبهة الحرب . ولقد تجمعت الأهداف العسكرية والمذهبية للنظام الإيرانى مع الأهداف الثورية للمتمردين الشيعة فى العراق وتركزت فى هدف واحد ملحّ هو الإطاحة بالرئيس صدام حسين . وقد صاحب التصعيد الكمّى لالتزام إيران العسكرى بالحرب دعوات ملحّة للعراقيين شيعة وسنة أن يثوروا على البعث . وفى الحرب ذاتها ، يُذْكىٰ الحماسُ الجماهيرىُّ الأصولى الشيعى ضد آلة الحرب العراقية المتفوقة تقنيّا . وتتلاءم الخسائر البشرية الفادحة فى هجمات إيران بالأعداد الغفيرة مع معتقدات الشيعة الغيبية (الأخروية) فى الاستعداد لمواجهة الشهادة .

---

(٢٣) التوحيد (مايو ١٩٨٣) : ٣ . المستقبل (١٩٨٤/٤/٧) : ٥٥ – ٥٦ .

(٢٤) انظر : الرسالة غير المؤرخة التى أرسلها حجة الإسلام سيد هادى خُسرو شاهى إلى التلمسانى .

٩ – المملكة العربية السعودية

النضالية السنيّة والشيعية فى مواجهة دولة إسلامية

تدّعى السعودية أنها دولة إسلامية ، وهذا يناقض بشكل حاد ما عليه معظم الأنظمة العربية التى تعترف بدرجات مختلفة من العلمانية . ورغم هذه الدعوى ، فإن المملكة لم تسلم من التحدى الأصولى من الداخل ومن الثورة الإسلامية فى إيران . وقد احتل التحدى الإسلامى ، فى السنوات الأخيرة ، حجما مهمّا ، كانت ذروته الاستيلاء على المسجد الحرام فى مكة ، والقلاقل الشيعية فى المنطقة الشرقية المنتجة للنفط من المملكة . وتعكس هذه التمردات السنيّة والشيعية تصدّعات مذهبية واجتماعية فى مجتمع يعانى صدمة ثقافية نتيجة التحديث السريع والارتجالى . ويساوى هذا فى الأهمية حقيقة أن هذه الانفجارات المعادية للنظام لها أصولها فى الخلافات التى صاحبت بدايات الدولة السعودية .

نظرة إلى الوراء : الرابطة السعودية – الوهابيّة

وَجَد التعارض الفريد بين الدين النضالى والقوة الملكية تعبيرا مثاليا عنه ، فى منتصف القرن الثامن عشر ، فى الدولة السعودية – فى « الدّرعية » – التى قامت على التحالف بين محمّد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهّاب . أخذ ابن سعود لقب « إمام » بحكم أنه الزعيم السياسى والعسكرى ، على حين قدّم ابن عبد الوهّاب مذهبية دينية متشددة ، بحكم أنه « الشيخ » . قامت تعاليمه المذهبية على أساس الالتزام التام بمذهب ابن حنبل وابن تيمية . اعترف الشيخ بالقرآن والسنة فقط ، ورفض كل ما بعدهما من تفسيرات مذهبية وكذلك التصوف والخرافات وعدّها بدعا. وفوق ذلك، فقد أنكر الشيخ شرعية السلاطين العثمانيين ودعا إلى

الاستمساك التامّ بأقوال الرسول (ﷺ) وأفعاله . حرّم استخدام المسبحة والطّباق (الدخان) والخمر والرفاهية وزيارة الأضرحة[*] . ونظرا لتأكيد الشيخ تأكيدا كاملا على « توحيد » الله ، فقد عرف أتباعه باسم « الموحّدين » ، ويعرفون خارج السعودية باسم « الوهّابية »[1] .

اتّسعت الدولة السعودية بسرعةٍ أوائل القرن الثامن عشر باستيلائها على مكة والمدينة ، لكن لم تلبث أن سحقها – عام ١٨١٨ – إبراهيم باشا بن محمد على . ثم شهد منتصف القرن ١٩ ظهور القوة السعودية من جديد فى نجد ، وسرعان ما هزمتها قبيلة ابن الرشيد عام ١٨٩١ . وبعد عقد من الزمان عاد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود من الكويت ونظم محاربى « الإخوان » الذين جنّدهم من قبائل : المطير وعتيبة وحَرْب وعَجْمان[2] . و« الإخوان » مستوطنات قبلية من النضاليين (الهُجَر)(!) الذين اقتدوا بهجرة النبى (ﷺ)، فهجروا الفساد إلى النقاوة الإسلامية. وبهذا أصبح « الإخوان » الأداة الأولى فى يد عبد العزيز لفتح معظم الجزيرة العربية وتوحيدها بين عام ١٩١٢ – ١٩٢٥ . وقد تُوِّجت انتصاراته المتوالية على العثمانيين والرشيديين والهاشميين واليمنيين وشيعة الخليج بتأسيس مملكة سعودية متحدة عام ١٩٣٢ . قام نجاح ابن سعود على أساس قوة دافعة مصدرها الأصولية الوهابية وإغراء الغنائم . لكن طبيعة النجاح هذه انطوت على تناقضات داخلية كانت سببا فى إثارة صعوبات أمام ابن سعود وخلفائه . من هذه الصعوبات الأساس القَبَلى للإخوان والحماس الكامن فى الروح الأصولية . لم يتمكن ابن سعود – رغم عظم مكانته وقوته – من السيطرة الكاملة على القبائل النضالية وزعمائها . كما أنه لم يستطع أن يمنع

(*) إدراج الخمر ضمن هذه الأمور خلط واضح ، فهى محرمة منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام بنص القرآن والسنة ، أما ما عداها مما ذكر هنا فقابل للاجتهاد ويحتمل أن يكون اجتهاد الشيخ قد أداه إلى القول بتحريم بعضها .

(١) للتفاصيل ، انظر : هـ . سينت جون فيلبى ، « السعودية » (نيويورك ، بريجر ، ١٩٥٥) . يكره معظم أتباع « عبد الوهّاب » من السعوديين أن يُدْعَوا بالوهّابيين نظرا لأنهم ينسبون أنفسهم إلى المذهب الحنبلى . بالنسبة للأصول المذهبية ، انظر : محمد بن عبد الوهاب ، « كتاب التوحيد » ، ترجمة إسماعيل راجى الفاروق (بيروت : دار القرآن الكريم للنشر ، ١٩٧٩) .

الزعماء عن استخدام سلاح الأصولية الإسلامية ذى الحدّين فى تحدّى حكمه المركزى .

فى منتصف العشرينات من هذا القرن أعلن « الإخوان » المنشقون عصيانهم لابن سعود وهاجموا المناطق الشمالية الواقعة تحت الانتداب البريطانى . تمكن عبد العزيز، فى موقعة «السَّبَلة» (١٩٢٩) ، من هزيمة « الإخوان » بقيادة « فيصل الدويش » و« ابن حُمَيد سلطان بن بِجاد » زعيمى قبيلتى المطير وعتيبة . وليس من قبيل المصادفة أن هاتين القبيلتين كان يمثلهما عدد كبير بين المتمردّين الذين احتلوا المسجد الحرام فى نوفمبر ١٩٧٩[٣] . والارتباط الواضح بين معركة «السَّبَلة» والاستيلاء على الحرم هو التحدى الدائم لشرعية المملكة العربية السعودية من قبل عناصر معيّنة من السكان . وقد تعرض ركنا الشرعية السعودية – الأصولية الوهابية وإجماع القبائل – للتآكل الجزئى نتيجة لسياسات خلفاء ابن سعود فى مجالات السياسة والاقتصاد والعلاقات الخارجية . وهكذا ، فقد يثبت أن النظام الشرعى ، الذى أقامه الملك ، أصبح ضارا بورثته . وفى مطلع هذا القرن ، حذّر عبد الله بن جَلَوِىّ – حاكم ابن سعود على الأحساء – سيّدَه من مخاطر حركة الإخوان : « إنها كالنار التى تأكل كل شىء »[٤] . وليس هناك شك اليوم فى صحة هذا الإنذار .

الدولة السعودية فى جو التحديث (١٩٥٣ – ١٩٧٩)

كانت الدولة ، عند موت الملك ابن سعود عام ١٩٥٣ ، قد بدأت بالفعل تخضع لضغوط التحديث (التى يمليها) الجو العالمى . وقد دفعت الزيادة المطردة

---

(٢) جيمس ب . بسكاتورى ، « دور الإسلام فى التطور السياسى فى السعودية » ، فى « الإسلام والتطور » ، تحرير جون ل . اسبوزيتو (سيراكيوس ، ط/جامعة سيراكيوس ، ١٩٨٠) ، ص ١٢٥ . .

(٣) من أجل تحليل شامل ، انظر : المؤلّف السرى « الإخوان ماضيا وحاضرا » لمؤلف مجهول باسم « أبو ذرّ » (د . ن ، ١٩٨٠) ، ص ٢٤٣ – ٢٥٢ . لاحظ أن « أبو ذر » كان الصاحب «الشيوعى»(!!) للرسول ﷺ ، وهذا أمر يعكس شخصية التحالف اليسارى الذى يعارض النظام السعودى بسلسلة منشوراته بعنوان « صوت الطليعة » .

(٤) أبو ذر ، « الإخوان » ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

فى الثروة النفطية ، وكذلك الاهتمامات الأمنية للمملكة ، السعوديين إلى الانهماك بشكل متزايد فى الشؤون العربية والدولية. ومن هنا تآكلت بالتدريج تلك العزلة التى فرضتها المملكة على نفسها ، الأمر الذى أثار ثقافتها الأصولية ضد البيئة العالمية المتغيرة بسرعة . وكان تولى الملك « سعود » إيذانا بعهد من التبذير وفساد الحكم . وقد أدّى ما كان فى شخصيته وفى سلوكه من عيوب إلى تنحيته عام ١٩٦٤ بإجماع كبار الأسرة المالكة والعلماء[٥] . وكان تولى الملك فيصل إشارة إلى استمرار مبادرات الإصلاح التى بدأها وهو رئيس الوزراء . ومن هذه الإصلاحات إنشاء حكومات وهيئات قضائية للأقاليم ، فضلا عن إجراءات للرعاية الاجتماعية والسيطرة على الأسعار وإلغاء الرِّقّ . بل إن فيصل أوجد مجموعات من قوانين تنظيم العمل ، والتأمين والتعدين والاستثمارات الخارجية[٦] . وقد سار الملك فيصل ، عند نشر هذه القوانين ، على سابقة والده فى إضفاء الشرعية على المبادرات الجديدة من خلال قوانين « الشريعة » . كان أعظم تحدّ خارجى واجه الملك فيصل هو الوحدةُ العربية التى نادى بها عبد الناصر ، والتى أدّت إلى مواجهة عسكرية مصرية – سعودية فى الحرب الأهلية اليمنية (١٩٦٢ – ١٩٦٨) . وكان رد فعله هو اللجوء إلى الشرعية الإسلامية فى الداخل وتشجيع حركات « الجامعة الإسلامية » فى الخارج[٧] . وفى الوقت نفسه وضع فيصل قيودا على منتقديه من الناصريين والأصوليين المتحمسين ، ممن عارضوا بشدة سياسة الملك الداخلية والخارجية .

فتح اغتيال الملك فيصل ١٩٧٥ ، وتولى الملك خالد بعده ، الطريقَ إلى قدر من الاسترضاء فى سياسة النظام الاجتماعية والاقتصادية والخارجية . ونظرا لضعف صحة الملك خالد ، فقد قام « فهد » ، ولى العهد ، بمسؤوليات شؤون المملكة من الجانب العملى . وفى عهد « فهد » استبدلت بخطط « فيصل » المحافظة والتدرجية مشاريع طموحة للتنمية استلزمت استيراد أعداد كبيرة من الأجانب .

---

(٥) فاروق ا . سنكرى ، « الإسلام والسياسة فى السعودية » ، فى « الانبعاث الإسلامى فى العالم العربى » ، تحرير علىّ الدين هلال دسوقى (نيويورك ، بريجر ، ١٩٨٢) ، ص ١٨٦ – ١٨٨ . (إ.) .

(٦) السابق ، ص ١٤٨ – ١٨٥ .

(٧) بسكاتورى ، دور الإسلام ، ص ١٣٥ . (إ.) .

وكانت نتيجة نمو ثروة المملكة تزايد شعورها بفقدان الأمن ، الأمر الذى اقتضى إقامة علاقات أمنية واسعة مع الولايات المتحدة . وأدت جهود السعودية فى مجال التنمية واهتماماتها فى مجال الأمن إلى تزايد الوجود الأمريكى[٨] . وقد نتج عن هذه التطورات فساد وإسراف فى الاستهلاك بين أفراد معينين من الأسرة الحاكمة وأقربائهم ، وزيادة فى حرمان القبائل والطبقتين الوسطى والدنيا إلى حد ما . كما أدّى تأثير الثراء ومظاهر النفوذ الغربى معاً على الاتجاه السعودى المحافظ ، إلى خلق أزمة ثقافية كبيرة باتت تهدّد قواعد الحكم الملكى . فى هذا الجو ظهرت موجة جديدة من الانبعاث الإسلامى خلال السبعينات .

عـــودة الإخـــوان

كانت الجبهة المعارضة للحكم الملكى فى الستينات عبارة عن تحالف بين الناصريين والبعثيين واليساريين والاتجاه الأصولى الإسلامى . كان المسرح الرئيسى للمعارضة يحتلّه القوميون العرب الناصريون بقيادة الأمير « طلال » ، وهذا شلّ دور الإسلاميين . ورغم محاولات « فيصل » كسب عناصر المعارضة ، فقد حدثت اعتقالات لبعض الضباط القوميين عام ١٩٦٩ بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم . لكن الحركة القومية دخلت مرحة التدهور فى السبعينات ؛ واحتلت مكانها الأصوليةُ الإسلامية التى كوّنت مذهبية مقاومة أكثر أصالة وشعبية (Nativisit) .

يمكن إرجاع بدايات حركة « الإخوان » الجديدة إلى مطلع الستينات . ويقال إن قيادتها كانت فى يد الأمير خالد بن مساعد بن عبد العزيز وبعض أصدقائه . ويبدو أن هذه الحركة الصغيرة قد أصبحت فى منتصف الستينات تشكل تهديدا قويا للملك فيصل بمعارضة سياسته فى التحديث المتزايد ، خاصة إدخال التلفاز . وفى أغسطس ١٩٦٥ قتل الأمير خالد مع سعد بن هُلَيل وآخرون

---

(٨) ذُكرأن أكثر من (٣٠٠,٠٠٠) أمريكى يعيشون فى السعودية أواخر السبعينات . انظر : جورج لينابورى ، « خَلْق السعودية وتآكل السلفية الوهّابية » ، فى « الدين والسياسة فى الشرق الأوسط » تحرير ميكائيل كورتس (شركة بولدر ، ومنت ڤيو، ١٩٨١) ، ص ٢٨٢ .

من الأتباع[٩] . وبعد عشر سنوات اغتال فيصلُ بن مساعد الملك فيصل انتقاما لموت أخيه الأكبر الأمير خالد[١٠] . ولا يبدو أن هذه الوقائع تشير إلى وجود ارتباط تنظيمى بين الإخوان الجديدة وبقايا الإخوان القديمة أيام الملك عبد العزيز . كذلك ، يبدو ضعف العلاقة بين مجموعة الأمير مساعد والنضاليين من « الإخوان » المسؤولين عن الاستيلاء على الحرم . أما الأمر الواضح فهو وجود عديد من الجماعات الإسلامية التى انتشرت خلال السبعينات فى كثير من قطاعات الحياة السعودية . ومن عجب أن هذه الجماعات تستخدم الآن الأصولية لتتحدى شرعية نظام أصولى ملتزم . وها هو التاريخ يعيد نفسه إلى مدى بعيد . فأساس أصولية الإخوان فى عهد الملك عبد العزيز كان تحدّى الإسلام الرسمى للدولة ، وكذلك هنا ، مع فارق هو أن فتنة الإستعمار البريطانى قد حلّ محلها الوجود الأمريكى وعدم استقامة بعض أفراد النخبة الحاكمة .

وإذا كان الإخوان الجدد لا تربطهم بالجماعات السابقة روابط تنظيمية ، فإن الاستمرارية المذهبية واضحة على الرغم من الفجوة الزمنية . والحق أن الالتزام المذهبى لدى الجماعات الجديدة قد يكون أعمق مما كان لدى أسلافهم زمن عبد العزيز ، الذين كانت الغنائم أحد دوافعهم . كذلك ، فإن الإخوان الجدد ، خلافا لأسلافهم الأميين ، هم فى الغالب من الشباب المتعلمين والمتحضّرين إلى حد ما ؛ وهذا معناه أنهم قد تعرضوا لمؤثرات التغريب . ولكن السمة الواضحة فى الإخوان الجدد هى الأصولية النقية – فدعوتهم تطالب بعودة لا تهاون فيها إلى الكتاب والسنة . وعلى هذا ، فمعارضة الإخوان للحكومة الملكية تشمل المعتقد الوهّابى السعودى ، على الرغم من أن الجماعة تجلّ ابن عبد الوهّاب وتعاليمه[١١] .

---

(٩) أبو ذر ، « الإخوان » ، ص ٢٤٨ – ٢٥٢ .

(١٠) وليم أوتشيسنُوولد ، « السعودية والإحياء الإسلامى » ، المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ١٣ : ٣ (أغسطس ١٩٨١) : ٢٧٤ . (إ.) .

(١١) جهيمان بن سيف العتيبى ، « سبع رسائل » (د . ن ، د . ت) ، ص ١٤٥ .

دعـــوة جُهَيْمـــان

كان جهيمان بن سيف العتيبى هو الزعيم المذهبى والقوة المحركة وراء احتلال المسجد الحرام . ليس فى خلفية جهيمان سوى سمات وضع هامشىّ بالمقارنة مع نظام الحكم السعودى . أما خلفيته الطبقية ، مضافا إليها خبرته الحياتية وشخصيته ، فإنها تضعه على طريق الاصطدام مع النظام ، الذى انتهى بواقعة الحرم . فمن حيث جذور جهيمان القبلية ، باعتباره أحد أبناء قبيلة « عتيبة » ، نراه مهيّأ لمعارضة السلطة المركزية السعودية. فجَدُّه قتل فى موقعة « السَّبَلة » ، وهى حادثة تمثل رابطة بين « الإخوان » ، القدامى والجدد ، من الناحية المذهبية وواجبات الثأر القبلى . خدم جهيمان ١٨ عاما فى الحرس الوطنى السعودى المجنّد من القبائل ، ثم استقال منه حوالى ١٩٧٤ . من المعروف أنه درس على يد الشيخ عبد العزيز بن باز فى الجامعة الإسلامية فى المدينة (المنورة) ، ثم تركها ليتابع بنفسه الدراسات القرآنية . بعد منتصف السبعينات قضى جهيمان وقته فى نشر رسالته وتنظيم أتباعه لمواجهة النظام . تجمعت فى جهيمان عوامل عدة جعلت منه ثائرا أصوليا من أعلى درجة ، ميّالا إلى تحطيم الحكومة الملكية ، وهى خلفيته القبلية وطبقته الوسطى وتاريخ أسرته وإخلاصه الدينى وخبرته العسكرية . يتوافق جهيمان فى أسلوب قيادته مع نمط الشخصية الآسرة الذى رأيناه فى الحركات الأصولية . فيقال إنه كان ذا شخصية جذابة وعينين نافذتين وشجاعة فائقة ، مما أكسبه الاحترام فى القبيلة والطاعة من أتباعه الشباب[١٢] . كما كان شاعرا مشهورا وكاتبا فى الموضوعات الإسلامية . وتتجمّع دعوة جهيمان فى « سبع رسائل »[١٣] نشرت ووزّعت بطريقة غير قانونية . وتشمل موضوعاتها ، التى أعلنت فى مكبرات الصوت أثناء احتلال الحرم :

---

(١٢) مجهول ، « أحداث الحرم بين الحقيقة والأباطيل » ، صوت الطليعة (مايو ١٩٨٠) : ١٢٠ - ١٢٢ .

(١٣) العتيبى ، « سبع رسائل » ، ص ٣ - ٣١ ، ٣٥ - ٥١ - ١٣٣ - ١٩٠ .

١ – وجوب اتباع سنة النبىّ (ﷺ) – الوحى والدعوة والغلبة العسكرية .

٢ – ضرورة أن يقوم المسلمون بالإطاحة بحكامهم الحاليين الفاسدين المفروضين عليهم والذين تنقصهم الصفات الإسلامية حيث لا يعترف القرآن بملك أو قبيلة .

٣ – شرعية الحكم تتطلب الإخلاصَ للإسلام والعملَ به والحكمَ بالقرآن ، وليس بالقهر ، والانتماءَ إلى أصول قريش وانتخابَ المؤمنين المسلمين (للحاكم) .

٤ – واجب إقامة العقيدة الإسلامية على القرآن والسنة وليس على تفسيرات العلماء المشكوك فيها(*) . ودروسهم « الخاطئة » فى المدارس والجامعات .

٥ – على المسلم أن ينفصل عن النظام الاجتماعى والسياسى بترك الوظائف الرسمية .

٦ – ظهور « المهدى » من نسب الرسول (ﷺ) ومن ولد الحسين بن على ليزيل المظالم القائمة ويقيم العدل والسلام للمؤمنين .

٧ – رفض كل من يشرك بالله ، بما فى ذلك عُبّاد على وفاطمة ومحمد ، والخوارج ، وحتى الموسيقى والتكنولوجيا .

٨ – وجوب إقامة مجتمع مسلم ملتزم يحمى الإسلام من الكافرين ولا يؤثر الأجانب(**)(١٤) .

نفّذ جهيمان دعوته عن طريق التخطيط المحكم والتنفيذ الدقيق الذى وصل ذروته فى ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩ بالاستيلاء على المسجد الحرام . فبعد إغلاق بوابات

(*) ذكر المؤلف مصطلح « تقليد » وفسّره بـ (Equivocal interpretation) ، وهذا غير صحيح ، وعليه ، فالمعنى هنا إما أن يكون كما ذكر فى الترجمة ، أو أن يكون : « ... وليس على أساس التقليد للعلماء ... » وما ذكر فى الترجمة أرجح .

(**) النقاط الثلاث الأخيرة غير واضحة المعنى تماما ولا مترابطة المكونات ... ولعل سوء فهم أو سوء نية وراء هذا الغموض .

(١٤) السابق ؛ وصوت الطليعة (مايو ١٩٨٠) : ٢٢ – ٢٩ ، ١٤٤ – ١٤٨ .

الحرم الثمانى والأربعين، أعلن محمد عبد الله القحطانى ، أخو زوج جهيمان ، أنه المهدى أمام جماهير الحجاج المذهولين . ويتفق هذا العمل مع عقيدة أن المهدى سوف يظهر فى أول المحرم من القرن الخامس عشر الهجرى – الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩ . كان عدد النضاليين يربو على ٣٠٠ من الرجال مع أسرهم[١٥] ، وقد استمروا فى القتال أسبوعين قبل أن يقتلوا أو يقبض عليهم . جمع الملك خالد مجلسا من العلماء بحثا عن فتوى تبيح الهجوم لاستعادة الحرم . مات المهدى أثناء القتال وقبض على جهيمان واثنين وستين من أصحابه وأعدموا .

بدأت سلسلة الأحداث ، طبقا للمصادر المطّلعة ، بخلافٍ حولَ عقارات . فقد طَرَد أحدُ المتنفّذين مجموعة لا يُدرى عددُها من أسر الطبقة الدنيا من مساكنهم ، فلجأوا إلى أمير مكة الذى فشل فى أن يقدم لهم مأوى بديلا ، الأمر الذى دفعهم إلى الانتقال بأمتعتهم إلى المسجد الحرام . ولعل هذا التصرف ، من طلب المأوى فى « بيت الله » ، قصد به الاحتجاج على الظلم . لكن الموقف تحول إلى قضية سياسية حين ربط جهيمان وأصحابه قضيتهم بقضية الأسر المطرودة وانضموا إليهم فى المسجد لإعلان العصيان للسلطة السعودية .

ولقد أثار حادث الحرم تساؤلات خطيرة حول النظام السياسى السعودى . من أبرزها أن ذلك إشارة إلى ضعف الحكومة الملكية فى توفير الأمن الداخلى . لقد ألقى القبض على جهيمان وأتباعه عدة مرات ، وفى منتصف ١٩٧٨ حكم بالسجن على ٣٠٠ من الإخوان ، لكنهم سرعان ما أطلق سراحهم بفضل شفاعة فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز[١٦] . لقد دبّرت المؤامرة تحت سمع النظام وبصره ، بما فى ذلك الحصول على الأسلحة والقيام بالتدريبات العسكرية ويساوى هذا فى الخطورة موقف الحكومة غير الحاسم فى مواجهة التمرّد[١٧]

---

(١٥) ثمة خلاف كبير حول عدد الثائرين ؛ انظر : صوت الطليعة (مايو ١٩٨٠) : ٤٢ – ٤٥ .

(١٦) أبو ذر ، « الإخوان ، ص ٢٥٠ – ٢٥٢ .

(١٧) Le Point (باريس ، ١٩٨٠/١/٢٨) . ذكرت بعض المصادر مشاركة أردنية فى سحق ثورة المسجد الحرام . انظر : السفير (بيروت ، ١٩٧٩/١٢/٩) . ذكرت التقارير أن خمسة خبراء فرنسيين فى مقاومة الثورات استدعوا لإدارة الهجوم باستخدام التلفاز .

وعلى مستوى أعمق ، يؤكد حادث الحرم على اهتزاز أساس شرعية النظام الملكى . وتشير التحليلات الاجتماعية لخلفيات المتمرّدين الاجتماعية إلى وجود ارتباطات قبلية هامة تتركز حول قبيلة « عتيبة » ، ثم – بدرجة أقل – على قبائل قحطان وحرب وعنزة ومُطَيْر . أما من حيث التوزيع الجغرافى ، فإن عددا كبيرا من الثائرين جاءوا من « نجد » ، وقلة من « شَمَّر » و« عسير » . وكان من بين المقبوض عليهم ٢٢ غير سعوديين ، معظمهم من مصر واليمن وقليلون من الكويت والسودان والعراق[١٨] . وتشير كثرة عدد النجديين إلى وجود معارضة للحكم الملكى تتركز فى قاعدة قوته القديمة . كذلك ، فإن وجود عدد كبير من طلاب الدراسات الإسلامية من الجامعات الإسلامية فى مكة والمدينة والرياض يعكس فشل السياسة السعودية فى التكييف الاجتماعى . ويرى المراقبون أن هناك متعاطفين مع الثائرين بين قطاعات البورجوازية الصغيرة فى المدينة ، والطلاب وصغار رجال الدين والموظفين وزعماء القبائل المعارضين لمركزية الحكم وجموده .

ومن الصعب – بالنظر إلى الماضى – أن نحكم على مدى نفوذ جهيمان وعلاقاته بجماعات المعارضة الأخرى . فبينما تقرر بعض المصادر أنه نشأ تحالف بين جماعات معارضة علمانية وأصولية ، فإن الواضح أن الاستيلاء على الحرم كان حركة أحادية الاتجاه قام بها « إخوان » جهيمان . ويبدو ، من منظور تنظيمى ومذهبى ، أن جماعة جهيمان تمثل فصيلة محدودة إلى حد ما بين معارضى الحكم الملكى من الأصوليين ، وهذا ما تفرضه الشخصية « الخلاصية » لمذهبية الإخوان وتشددهم البدائى فى المعتقدات وطرائق الحياة . والواقع أن الاستيلاء على المسجد الحرام – فى نظر الكثيرين من ذوى النفوذ المتعاطفين مع الأهداف السياسية للإخوان – يشكل عملا غير مشروع عَقَدِيًا وطائشا تخطيطيا (تكتيكيا) . كما أن ادعاء صهر جهيمان « المهدية » لا يساعد على اجتذاب تأييد واسع من جماهير الأصولية الشعبية . ومن الواضح أن حركة الإخوان القديمة ومذهبها الوهّابى

---

(١٨) صوت الطليعة (مايو ١٩٨٠) : ١٢٨ – ١٢٩ . روشوت ، « الحمى الكبرى » ، ص ٩٢ .

الحنبلي لم يعرفا التوجه « المهدوى » . أما فى وعى الجماهير السنية فى وقتنا الحاضر ، فإن دعوى « المهدية » يمكن أن تجد استجابة اجتماعية فقط فى أوقات التوقع الجماهيرى حين تكشف شخصية فذّة عن نفسها فى « آخر الزمان » . وعلى هذا ، فإن أحلام « الإخوان » فى زمن الخلاص ، وتوجههم إلى الاعتزال اجتماعيا ، ورفضهم التام للتحديث يميل إلى تقوية طبيعتهم الحَرْفِية ، أشبه ما يكونون بجماعة « التكفير والهجرة » المصرية . ومن المهم أن نلاحظ أن كلا من الجماعتين قد اتهمتها السلطة بأنها من « الخوارج » ، وهى وصمة تشير إلى « المنشقين » فى العصور الأولى للإسلام : أصحاب التوجه الإرهابى دينيا وسياسيا .

الأصوليـــة الشيعيـــة

تزامنت الاضطرابات الشيعية فى المنطقة الشرقية من المملكة مع استيلاء الإخوان على المسجد الحرام . وقد حاولت الصحافة المعارضة للسعودية – فى دعاياتها – أن تربط بين الحادثين[١٩] . وإذا لم يكن ثمة ما يشهد بالتنسيق بين الحادثين ، فإنهما يرمزان إلى سعة المعارضة للحكم الملكى . والإلهام الذى حرك الأصولية الشيعية أواخر ١٩٧٩ إنما جاء مباشرة من الثورة الإيرانية ، وهى فى هذا مغايرة للإخوان السنّة ، لكن ، فى كلا الأمرين ، توجد عوامل محلية أدت إلى النضالية المعادية للنظام .

توجد فى المنطقة الشرقية تجمعات من الشيعة الاثنا عشرية تعتبر – سكانيا – امتدادا للأغلبية الشيعية فى إيران والعراق . وقد شهدت المنطقة الشرقية – منذ أن احتلها الملك عبد العزيز عام ١٩١٣ – معارضات من حين لآخر للحكم السعودى قام بها المواطنون الشيعة . فى عام ١٩٢٥ أنشئت جمعية شعبية بقيادة محمد الحَبْشى لتعبر عن المطالب المحلية ، وسرعان ما اعتبرتها الحكومة غير قانونية . وحين اكتشف النفط أصبح للمنطقة الشرقية أهمية جديدة حيث

---

(١٩) انظر : « الثورة فى جزيرة العرب ١٤٠٠ هـ . دراسة فى الصراع الشعبى قبل ثورة الجزيرة العربية » ، شعوب البحر المتوسط ، ٢١ (باريس ، أكتوبر – ديسمبر ١٩٨٢) : ٦٠ – ٧١ . (ف) .

عمل كثيرون من المواطنين الشيعة فى صناعة النفط . وفى أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها نُظِّم هؤلاء العمال الشيعة عماليا وأظهروا استياء متزايدا قِبَل الحكومة والجالية الأمريكية الكبيرة . وفى عام ١٩٤٨ وصلت القلاقل الشيعية إلى حد الانفجار فى مظاهرات واسعة النطاق وفوضى فى منطقة « القطيف » بقيادة محمد ابن حسين الهراج[٢٠] . وقد تمّ بسهولة سحق المتمردين الذين كانوا يطالبون بالانفصال عن المملكة . وفى عام ١٩٤٩ اكتشفت الحكومة وجود جماعة ثورية فى القطيف تعمل تحت اسم جمعية تعليمية . حلت الجمعية ومات أحد زعمائها ، اليسارى/عبد الرءوف الخنيزى ، فى السجن[٢١] . هذه الحركة ، التى امتدت إلى جُبَيل ، تم سحقها أخيرا عام ١٩٥٠ . فى الوقت نفسه كانت هناك مظاهرات عمالية كبيرة خلال ١٩٤٤ و١٩٤٩ و١٩٥٣ احتجاجا على ظروف العمل ؛ كما كان هناك مقاطعات، خلال حربَيْ ١٩٥٦، ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل، لقطع امدادات النفط عن الغرب . وفى عام ١٩٧٠ أرسل الحرس الوطنى إلى القطيف لمحاصرة المدينة لاحتواء الاضطرابات . وفى عام ١٩٧٨ حدث انفجار آخر أدّى إلى اعتقالات وخسائر واسعة النطاق[٢٢] .

وقد تزامنت الاضطرابات الواسعة فى القطيف وسيهات أواخر ١٩٧٩ مع أيام الحداد الدينى الشيعى (عاشوراء) ، واحتجاز الرهائن الأمريكيين فى طهران والاستيلاء على المسجد الحرام فى مكة . ووقوع هذه الأحداث متزامنة فى أعقاب الثورة الإسلامية بدا وكأنه نذير شؤم للسعوديين . والواقع أن دعوة آية الله الخمينى إلى شيعة المنطقة الشرقية (٢٥٠,٠٠٠) تضمنت دعوة إلى الثورة . وفى ١٩ نوفمبر عاد الحرس الوطنى ليسحق المقاومة الشيعية . حيث استمرت الاضطرابات إلى جزء كبير من ديسمبر ١٩٧٩ .

---

(٢٠) « وثائق العربية السعودية » ، « الإسلام فى فورة » ، شعوب البحر المتوسط ، ٢١ (باريس ، أكتوبر – ديسمبر ١٩٨٢) : ٦٣ . (ف.) .

(٢١) السابق . وانظر أيضا : صوت الطليعة (مارس ١٩٧٤) : ٦٦ – ٧٠ .

(٢٢) فُرِد هاليداى ، « الرمال المتحركة تحت بيت سعود » ، مجلة « التقدمى » (مارس ١٩٨٠) : ٣٩ . (إ.) .

السياسة السعودية تجاه المجموعات المشاكســـة

انتهجت المملكة فى السنوات الأخيرة بشكل متزايد سياسة الإصلاح والاسترضاء تجاه معارضيها الداخليين والخارجيين . ويمكن أن نميز نوعين من الجماعات المعارضة .

تتكون الأولى من التنظيمات اليسارية والقومية ذات الاتجاه العلمانى :

١ – اتحاد شعب الجزيرة العربية – ناصرى .

٢ – الجبهة القومية لتحرير الجزيرة العربية – شيوعية .

٣ – حزب البعث – اشتراكى عربى .

٤ – الاتحاد الديمقراطى الشعبى – ماركسى مؤيّد للفلسطينيين .

٥ – الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير الجزيرة – اشتراكية متطرفة .

٦ – جبهة التحرير العربية – قومية عربية .

٧ – حزب العمل الاشتراكى العربى – قومى اشتراكى .

أما النوع الثانى فيتكوّن من منظمات إسلامية تضم :

١ – منظمة الثورة الإسلامية بالجزيرة العربية – شيعية .

٢ – حزب تحرير الجزيرة – شيعى .

٣ – جمعية الدعوة – سنيّة .

٤ – الإخوان – سنيّة .

أصبحت المجموعات اليسارية والقومية العلمانية – رغم كثرتها – عديمة التأثير تقريبا فى العقد الأخير . لقد نجحت – إلى حد كبير – سياسة المكافآت المالية التى توسعت المملكة فى استخدامها مع مناوئيها المبعدين (expatriate) .

لكن المشكلة الأكثر تعقيدا إنما هى كسب المعارضة الإسلامية المتنامية . بالنسبة لموضوع الشيعة ، يبدو الفتور على السياسة السعودية . ويعتمد حجم المعارضة الشيعية للنظام ، داخليا وخارجيا ، على إقرار السياسات الإصلاحية وعلى المحصلة النهائية للمواجهة الإيرانية – السعودية . إن تجاوزات نظام الخمينى فى الداخل ، وعجزه عن إحراز نصر حاسم على العراق ، قد قلّلت من تأثير الثورة الإيرانية على شيعة السعودية . ومع ذلك فإن الإصلاحات الأخيرة التى أقرّت فى المنطقة الشرقية قد لا تكون كافية لترطيب المعارضة الشيعية بدرجة مهمة ؛ إذ يبدو أن الشيعية والأصولية لا تقبلان المساومة على الإطلاق . كان ثمة خوفٌ – من جانب الشيعة – أن يذوبوا فى الأغلبية السنيّة ، وامتناعٌ عن الاستفادة من القروض الحكومية والمعونات وبرامج التعليم .

وعلى النقيض من ذلك تماما ، تقوم الحكومة بمحاولات دائبة لاسترضاء معارضيها السنّة فى الداخل وفى الخارج . ومن المستحيل عمليا أن نحكم على نتائج هذه السياسة . فالجماعات الإسلامية السنية ، داخل المملكة وخارجها ، ذات ارتباطات قوية بالجماعات الأصولية فى العالم العربى ، خاصة « الإخوان المسلمين » فى مصر وفروعها فى الكويت والمغرب والخليج . والواقع أن الملك فهد يواجه ضغوطا قوية من الجماعات الإسلامية السنيّة . وقد انتشرت على نطاق واسع ، منذ الاستيلاء على الحرم ، مظاهر الانبعاث الإسلامى ، خاصة بين طلاب الجامعات والكليات . وقد نظم هؤلاء الأصوليون أنفسهم فى جماعة أسموها « جماعة الدعوة » التى لم يبد عليها حتى الآن توجهات ثورية على الرغم من حماسها الالتزامى . ومن السهل نسبيا التعرف على هؤلاء الأفراد والجماعات من خلال مظهرهم :

١ – لحى كاملة مع شارب نحيل أو بدون شارب .

٢ – تقصير شديد لشعر الرأس – ٣ ملليمتر .

٣ – ثوب أبيض قصير فوق السراويل ، يغطى من السرة إلى الركبة . لا يغطى الثوب القدمين ، لأن الثوب الطويل يشير إلى البذخ أو الكِبْر .

٤ – غطاء للرأس (طاقية) وغترة بدلاً من العقال العربى المعتاد الذى يعتبر بدعة .

٥ – ساعة يد مع سلسلتها ، وليس ثمة مِسْبحة .

وتبدو بوضوح مظاهر الزى والسلوك الملتزمين فى الكليات العلمية فى « جامعة المعادن والبترول » وكلية الطب بجامعة الملك فيصل وجامعة الملك سعود فى الرياض . ولا تقتصر الأصولية فى الجامعة على المظهر الخارجى . فالموجة الجديدة من التفكير الإسلامى يمكن أن نلخصها فيما يلى : « لا يمكن أن نقوى أنفسنا فى ظل هذه الأنظمة الضعيفة بمجرد قراءة القرآن والتاريخ ، وإنما بدراسة العلم ، كى نستخدم التقنية الغربية ضد العرب »(٢٣) .

وهذا يفسر الاهتمام الجديد بين الشباب بالتمكن من العلوم والتقنية . ويصاحب هذا أن الطلاب الأصوليين قد أظهروا معارضة متزايدة للدراسة فى الجامعات الأمريكية والأوربية لأنهم يعتقدون أن هذه السياسة إنما تشجعها رغبةُ الحكومة فى إضعاف روحهم الإسلامية . كما تتفشى بعنف حركة الإحياء الإسلامى بين الطلاب السعوديين فى الولايات المتحدة الذين يواجهون منافسة قوية على التفوق .

إن السمة الملفتة للنظر فى دعوة جهيمان هى الرفض التام لحكم الأسرة السعودية وللمذهبية الوهّابية ومتعهدى تغذيتها من الموظفين . لقد تحولت ذرية « آل الشيخ » – بعد « ابن عبد الوهّاب » بقرنين – إلى أجهزة اعتذار رسمية لصالح الحكم الملكى ، وهو ما يعارضه الإخوان والأصوليين الآخرون بشدة . وفى ضوء هذا التحدى المتطرف من الإخوان ، اضطرت الحكومة الملكية إلى أن تبرهن على أنها أكثر أصولية من منتقصيها . وهكذا أصبح تطلب الحكومة للأصولية ، بالإضافة إلى سياستها القائمة على التقييد ، مصدر قيود اجتماعية مضاعفة تقع على عاتق المواطنين العاديين . فمن الناحية الإيجابية وضعت المملكة سياسة إصلاحية استهدفت استرضاء المعارضة الداخلية . فبعد شهر من حادث الحرم وعد الأمير فهد بإصدار « قانون أساسى » يتضمن « مجلس الشورى »

---

(٢٣) كان هذا هو التوجه فى مقابلات أجريت مع نحو عشرة من طلاب الجامعة السعوديين فى مايو ١٩٨٣ .

وأساليب الحكم . لكن اللجنة الدستورية التى شكلت فى مارس ١٩٨٠ برئاسة الأمير نايف لم تقدم حتى الآن هذه الوثيقة الموعود بها[٢٤] . وفى نفس الوقت ضاعفت المملكة من جهودها لكسب معارضيها فى الداخل وفى الخارج عن طريق الوعود السخية بالوظائف والمكافآت المالية[٢٥] . لكن هذه السياسات لن يكون لها سوى تأثير محدود ، إذ أنها لم توفّق فى التعامل مع الأسباب الأساسية للنفور والقلاقل . وإذا لم يتبَنّ الحكم الملكى برنامجا شاملا للإصلاح ، فإن المتوقع أن محاولاته لتحقيق استقرار داخلى محكوم عليها بالفشل .

إن نمو التوجه الإسلامى بين جماهير المواطنين قد ضاعف بشكل هائل من أعباء الملك فهد . فمشاكله تتضاعف مع انخفاض دخل النفط ، ومع ما يتبع ذلك من تقليل محتمل لمكانة السعودية ونفوذها . لقد ارتدى الملك فهد الطيلسان بعد موت الملك خالد فى ظروف تحس خلقتها حرب لبنان ، مما جعله يواجه انتقادا بسبب ما يلاحظ من توجهه الموالى للغرب . حرص الملك على ألا يبرز كثيرا فى السياسة الخارجية ، وفى نفس الوقت يحاول الحفاظ على سمعته كمسلم جيد عن طريق المحافظة الشديدة على القوانين الإسلامية . فى ١٥ يونيه ١٩٨٣ ، وفى حركة مفاجئة ، دعا الملك العلماء المسلمين إلى عقد مؤتمر عالمى لتحديث الشريعة الإسلامية عن طريق « الاجتهاد »[٢٦] . ومن السابق لأوانه معرفة حقيقة استجابة الجمهور السعودى لمبادرة الملك . على أى حال ، أظهرت الحكومة السعودية ، رغم مشاكلها ، مرونة غير عادية فى التكيف مع الظروف طلبا للاستقرار الداخلى .

---

(٢٤) بسكاتورى ، « دور الإسلام » ، ص ١٢٧ . (إ.) .
(٢٥) وثائق ، ص ١٦٨ – ١٦٩ . (ف.) .
(٢٦) الواشنطن بوست (١٩٨٣/٦/١٦) . (إ.) .

١٠ – الأصولية الإسلامية فى الخليـــج

تحيط بالأصولية الإسلامية فى دول الخليج العربى بيئة اجتماعية وسياسية فريدة . والسمات التالية تحدّد هذه البيئة :

١ – حكم سلالى فى أيدى عائلات سُنّيّة ، باستثناء عُمان ، تحكم شعوبا تضم تجمعات شيعية ذات وزن .

٢ – سيطرة سياسية واقتصادية يمارسها أهل البلد العرب على السكان الوافدين .

٣ – تغلغل غربى ملموس فى اقتصاد المنطقة وثقافتها ضمن عملية التحديث السريعة .

٤ – ثراء وفير وسط تشقق طبقى .

٥ – منافسات وضغوط عظيمة القوة من الدول القوية المجاورة – إيران والعراق والسعودية وباكستان وسوريا والأردن .

هذه العوامل السابقة ، والخاصة بالخليج ، قد أنتجت أصولية غير نضالية نسبيا إذا قورنت بالطبيعة الثورية للظواهر الإسلامية فى إيران والسعودية . وثمة وجوه شبه واضحة فى الروح الإسلامية فى دول الخليج . كل الأسر الخمس تحكم على أساس من الشرعية الإسلامية والموافقة القبلية . ومع ذلك ، فلم تستطع أى منها ، أو ترغب فى فرض القيود الإسلامية التامة على مجتمعاتها المفتوحة نسبياً والمتعددة اللغات. وعلى الرغم من هذا، فقد ساهم الغنى الفاحش، والتبذير والتهتك، فى ظهور الأصولية بشكليها السنّى والشيعى. توجد الأصولية السنية بين عرب الطبقة الوسطى والوسطى – العليا وأبناء القبائل الكارهين لحكم العائلات وثرائها . وهناك انبعاث أقوى يمكن إدراكه بين الوافدين من المسلمين السنة عربا

وغير عرب – كالفلسطينيين والمصريين والباكستانيين واليمنيين والسوريين والعراقيين وغيرهم ، ومعظمهم يشغل مواقع فى الطبقة الوسطى والوسطى – الدنيا . وبالمثل ، نجد الأصولية الشيعية بين الطبقة الوسطى والوسطى – الدنيا ، وتلاحظ بين العرب والفرس المعرّبين والمواطنين الإيرانيين العاملين فى دول الخليج .

تعرضت دول الخليج – رغم ثرائها – لتوتّر ملحوظ ناتج عن كثرة الضغوط الداخلية والخارجية .

إن التفاوت الكبير فى الثراء وعدم التوازن السكانى والتحديث الارتجالى ، كلها قد خلقت فى المنطقة ظروفا قوية تساعد على عدم الاستقرار . وثمة تهديد مماثل مصدره ضغوط إيران الثورية وحرب العراق وإيران والصراع العربى الإسرائيلى والتنافس المتزايد بين القوى العظمى فى الخليج . فى هذه البيئة الحبلى بالأزمات والتعقيدات ، ظهرت الأصولية الإسلامية كقوة أصيلة ثابتة ومنتشرة . وإنها – من حيث الجوهر – أصولية جماهيرية تشكل تحديّا للإسلام الرسمى . هذا الإسلام الجماهيرى فى الخليج يعبر عن نفسه – كما فى الدول العربية الأخرى – عن طريق عدة أنواع من الجمعيات الأصولية التى تمثل التصوف والتشيع وألوانا من الإصلاح ، والالتزام المتشدد[1] . اتّخذ رد فعل حكام الخليج صورة إصلاحات اجتماعية واقتصادية مصحوبة بتقوية المؤسسة الإسلامية .

الكويت : الإسلام فى دولة تحرّريـــة

الكويت هى أغنى دول الخليج وأكثرها تحديثا وتحرّرا . فى مارس ١٩٨١ ، انتخب ٥٠,٠٠٠ من المواطنين الكويتيين الذكور مجلسا نيابيا استشاريا ليعمل تحت حكم أسرة « آل الصباح » التى مضى على وجودها فى السلطة أكثر من قرنين . وفى الواقع ، تنحصر عملية صناعية القرار فى الأسرة الحاكمة وما يربو على عشرين أسرة من أثرياء التجار . لكن نخبة صناعة القرار هذه لا تشكل

---

(١) جيمس ا . بِل ، « الإسلام والسياسة والشيعية فى الخليج » ، مجلة « نظرات فى الشرق الأوسط » ، ٣ : ٣ (يناير/فبراير ١٩٨٤) : ٧ . (أ .) .

مجموعة مغلقة من حيث أنها تظل حساسة للرأى العام الذى يُعبّر عنه المجلس النيابى والصحافة .

على الرغم من التحديث السريع للمجتمع ، فإن الإسلام لا يزال القاعدة الأساسية فى شخصية الفرد والمجتمع . خبرت الكويت ، منذ انهيار الوحدة العربية ، انبعاثا هاما للإسلام خاصة بين الطلاب . وتشير كل الدلائل إلى أن الحكومة قد شجعت على نموّ نوع من الوعى الإسلامى غير السياسى . لقد كثر استخدام الموضوعات الإسلامية فى خطب رجال السلطة والنخبة من السياسيين والاقتصاديين والفنيين ورجال الفكر[٢] . فهناك أولئك الذين يستخدمون المصطلحات الإسلامية ، كما هى الحال فى كل العالم العربى ، لأنها أصبحت تقليدا ومفيدة فى استرضاء الجماهير الإسلامية .

ولكن الدور الإسلامى للكويت قد تعدّى حدوده . فالكويت ، بوصفها دولة متحررة ، تستضيف السياسيين اللاجئين من البلاد العربية ، وتسمح لهم بقدر كبير من حرية الكتابة والنشر . ويتراوح هؤلاء اللاجئون ما بين اليساريين العرب إلى التحرريين (الليبراليين) والأصوليين الذين يصدرون عدة صحف عالية الجودة . من بين هذه مطبوعات إسلامية قوية التأثير تحلل القضايا الخطيرة وتشتغل بالدعوة[٣] . فى مقدمتها مجلة « المجتمع » الأصولية ، لسان حال « جمعية الإصلاح الاجتماعى » . وتسير هذه الجمعية الهامة ، فى مذهبيتها وأنشطتها ، على منهج « الإخوان المسلمين » المصرية ، ولَها ارتباطات قوية بها . وتعتبر الجمعية – بالقياس إلى حجم الكويت – كبيرة الحجم . وإذا كانت الجمعية لا تظهر نشاطا سياسيا زائدا فى المحيط الكويتى ، فإنها تتبع خطا هجوميا تجاه الأنظمة العربية العلمانية ، خاصة الحكومتين المصرية والسورية . ومثال ذلك ما ورد على صفحات المجلة من تهديد للرئيس مبارك عقب إعدام الملازم أول خالد الإسلامبولى[٤] . كذلك فإن المجلة تتناول بالنقد الحكومات العربية الأخرى التى

---

(٢) توفيق ا . فرح ، « السياسة والدين فى الكويت » فى « الانبعاث الإسلامى فى العالم العربى » تحرير علىّ الدين هلال دسوقى (١٩٨٢) ، ص ١٧١ – ١٧٦ . (إ.) .

(٣) انظر : « المسلم المعاصر » و« الوعى الإسلامى » .

(٤) المجتمع (مايو ١٩ ، ١٩٨٢) : ٤٤ .

تتّبع سياسة الاضطهاد تجاه الجماعات الإسلامية ، مثل : ليبيا وتونس والجزائر والمغرب . ولكن المجلة تكفّ عن انتقاد العراق والأردن والسعودية ودول الخليج ، باستثناء عُمان التى تعتبرها عميلا لأمريكا . ويتكوّن أعضاء الجمعية من أبناء الطبقة العليا والوسطى العليا من الموظفين والمفكرين والمهنيين والطلاب الذين يجنّدون من بين الكويتيين وغير الكويتيين من المقيمين . ويعكس تكوين قيادتها طابعها الذين يتجاوز الحدود القومية ؛ ففيها مغاربة ومصريون وفلسطينيون وسوريون وسودانيون وأردنيون ، وكل منهم يمنح ملاذا آمنا نسبيا لنشاطاته الإسلامية ضمن حدود مفروضة . وليس ثمة شك فى أن الجمعية تحظى بتعاطف عدد من الشخصيات البارزة فى النظام وفى الأسرة الحاكمة . ولكن أنشطتها تحت مراقبة السلطة حتى لا تعرِّض للخطر ما للكويت فى سياسته الخارجية من توازن مضبوط بدقة . فيحدث أن تختار الحكومة مصادرة أعداد معينة من « المجتمع » اعتبرت أن فيها إساءة إلى علاقات الكويت بدول عربية معينة . وتعمل الجمعية بنشاط – فى داخل الكويت – على تعزيز الثقافة والتعليم الإسلاميين من خلال المحاضرات والإشراف على فصول القرآن التى تعقد فى عشرات المواقع[٥] . كما ترأس الجمعية شبكة من الفروع على امتداد دول الخليج .

أما الأصولية الشيعيّة ، خلافا لنظيرتها السنيّة ، فإنها حركة الاحتجاج من الأقلية الإثنا عشرية فى الكويت ، وهى كبيرة الحجم (٢٤٪) لكنها أقل فى الامتيازات . ومع أن أعضاءها فيهم الكويتيون والفرس ، فإن الأخيرين هم الأكثر استعدادا للمشاركة فى المظاهرات ولإظهار الحماس للدعاية الإيرانية . « دار التوحيد » هى أهم تعبير تنظيمى وفكرى عن شيعة الكويت . وقد كانت هذه المجموعة نشطة فى النشر والدعاية ، وهو أمر يرضى عنه النظام الإسلامى الإيرانى . وبالنظر إلى مساعدات الكويت المالية للعراق ، اتخذت إيران موقف التهديد المتزايد . ولعل تفجير الشاحنات فى السفارتين الأمريكية والفرنسية وفى أهداف أخرى فى ١٩٨٣/١٢/١٢ بمثابة مظاهر للسخط الإيرانى تمّ تنفيذها بمساعدة نضاليّى الشيعة المقيمين فى الكويت . لقد نفت إيران مسؤوليتها عن الهجمات ،

---

(٥) المجتمع (١٩٨٢/٨/٨) : ١٢ .

على الرغم من القبض على أعضاء من حزب الدعوة[٦] .

بدأ المجتمع الكويتى ، منذ تفجيرات ديسمبر ١٩٨٣ يعيش فى قيود واضحة على الحياة السياسية . فاتخذت إجراءات جديدة للحفاظ على الأمن الداخلى ضد احتمالات الإرهاب . وإلى جانب التهديدات المتوقعة من الشيعة ومن إيران ، فقد أظهرت الحكومة اهتماما متزايدا لنموّ النشاط الإسلامى السنّى ونمو الاستقطاب حوله وحول العناصر القومية . وعلى كل الاحتمالات ، فإن النظام سوف يبذل جهده لدعم الجماعات القومية العلمانية من أجل التوازن مع الحركيين الإسلاميين .

البحرين : الأغلبية الشيعية فى ثـــورة

كانت البحرين منطقة تركيز للانبعاث الشيعى فى الخليج قبل الثورة الإيرانية وبعدها ، وذلك كنتيجة مباشرة للوضع السكانى والاجتماعى والاقتصادى للشيعة فى الجزيرة . يعتبر الشيعة أغلبية بالنسبة للسنّة المسيطرين سياسيا ، كلا الأسرة الحاكمة ، أسرة الشيخ عيسى بن خليفة ، ومعظم النخبة السياسية ينتمون إلى الطائفة السنّيّة . وتزداد غربة الطائفة الشيعية بسبب أن بعض أفرادها من أصل فارسى . ومن هنا ، كان هناك دائما شعور متحيّز لإيران بين شيعة البحرين . كما ساعدت مطالبات إيران المستمرة بضم الجزيرة على تعميق الفجوة بين السنّة والشيعة . ومن هذه الأرضية انطلقت الأصولية الشيعية كحركة احتجاج قوية فى أعقاب الثورة الإيرانية .

حاول نظام الخمينى – خلافا لجهود الشاه فى ضم البحرين – أن يثوّر الأغلبية الشيعية للقضاء على أسرة آل خليفة . كانت الأداة الرئيسية للنضالية الشيعية هى « الجبهة الإسلامية لتحرير البحرين » (انظر : ملحق – ١) . أحد قادتها هو حجة الإسلام هادى المدرّسى الذى أُبْعِد بسبب ادعائه أنه وكيل الخمينى فى البحرين . وكانت لرجل الدين الإيرانى هذا علاقة بمنظمة العمل الإسلامى

---

(٦) المستقبل (١٩٨٣/١٢/١٧) : ١٦ : ١٨ .

المعارضة للبعث العراقى . وقد اشتغل « المدرّسى » بهمّة – منذ إبعاده من البحرين – فى بثّ التطرف بين الشيعة من خلال إذاعاته المهيّجة من إيران . وقد اتهمت حكومة البحرين « المدرّسى » بأنه كان منظّم محاولة الانقلاب الفاشلة فى ديسمبر ١٩٨١[٧] .

فى ١٩٨١/١٢/١٦ أعلنت البحرين والسعودية عن القبض على خمسة وستين متآمرا شيعيا قيل إن « المدرّسى » درّبهم فى إيران . وقد أثارت المؤامرة قلقا شديدا فى السعودية والبحرين انتهى إلى عقد معاهدة دفاع مشترك فى ١٩٨١/١٢/٢٠ . ويشير إلى عمق خوف السعودية الاتهام الذى وجهه الأمير نايف وزير الداخلية بقوله : « لقد أصبح الإيرانيون إرهابيّى الخليج »[٨]. وقد عرض الأمير مساعدة السعودية أمنيا على كل دول الخليج ضد « نوايا إيران العدوانية »[٩] .

وممّا له مغزى أنه لم يعدم أى واحد من المقبوض عليهم ، وإن كان زعماء الفتنة الثلاثة قد حكم عليهم بالسجن مدى الحياة . وقد عكس تساهل الحكومة النسبى التزامها بسياسة التلطف مع الجالية الشيعية . فقد حاولت السلطات ، فى السنوات الأخيرة ، إعطاء الشيعة دورا أكبر فى الحكومة والتجارة . أما الحماس الإسلامى عند السنّة فتعوزه النضالية . لقد عملت فئة وكلاء المصارف والتجارات ضد ظهور حركة إسلامية سنيّة نشطة .

قطر وعُمـان والإمارات العربية المتحـدة

لم تقم الحركات الإسلامية النضالية بدور كبير فى سياسة جنوب الخليج . ولا يفهم من هذا أن الإسلام غير مهم لسياسة المنطقة وللمجتمع . لكن لم يتخذ الإسلام وصفا نضاليا عاما ، ربما بسبب زيادة نسبة الوافدين وما تفرضه أوضاع فئات المتعهّدين .

---

(٧) ملف الحقائق (١٩٨٢) ، ص ٥٨ . (إ.) .

(٨) السابق نفسه .

(٩) السابق ، ص ٥٨ ، ٣٩٨ ؛ الدستور (١٩٨٢/١/١١) : ٢٦ – ٢٧ .

يحكم قطر عائلة آل ثانى التى تعتنق رسميا « الوهّابية » . لكن وهّابية قطر تنقصها صرامة نظيرتها فى السعودية . لقد رقّقتها « ثقافة نفطية » ثرية ونزوع السكان إلى التجارة . لكن ظهرت – فى السنوات الأخيرة – بين القَطَرِيّينَ ، القبليّين والمتعلّمين ، اتجاه أصولى مضادّ للإسلام الرسمى . وقد قوّىٰ من هذه الاتجاهات وجود المبعدين من أعضاء « الإخوان المسلمين » المصرية الذين يشغلون وظائف تعليمية واستشارية مهمة ، لكن ليس ثمة ما يشير إلى أن الأصولية تشكل معارضة منظمة ضد الأسرة الحاكمة . أما حماس الأقلية الشيعية ، التى تشكل ١٦٪ من مجموع السكان ، فهو أوضح من ذلك . معظم الشيعة فى قطر من أصل فارسى ، وهذا جعلهم أكثر استعدادا للتأثر بالدعاية الإسلامية الإيرانية . لكن دلائل النضالية الشيعية فى قطر – خلافا للبحرين – كانت ضئيلة .

تقف عُمان – بحكم أنها موطن الإسلام الإباضى (!) – وحدها فى العالم الإسلامى ، انحدرت الإباضية من الخوارج الذين قتلوا الخليفة الرابع « عليا » وعارضوا نسل قريش – قبيلة النبى (ﷺ) – فى قيادة المجتمع المسلم . بدلا من ذلك ، أكد الخوارج التقليد القبلى الأصلى فى اختيار الخليفة على يد أهل الحل والعقد من المسلمين ، مع توقف ذلك على بيعة المسلمين الصريحة[١٠] . حكمت الإباضيّين أسرةُ « آل بوسعيد » منذ منتصف القرن الثامن عشر . وفى منتصف القرن التاسع عشر وقعت عمان تحت نفوذ استعمارى بريطانى متزايد ، استمرّ – فى شكل مخفّف – حتى اليوم . فى عهد « سعيد بن تيمور » (١٩٣٢ – ١٩٧٠) ، عُزلت عمان عن العالم الخارجى حيث كان السلطان ، الملىء بالرهبة من الأجانب ، يحكم من خلال عملاء بريطانيين وهنود وبلّوش ، ومرتزقة على حساب إقصاء العرب الإباضيين[١١] . وقد أدت قسوة حكم السلطان إلى العديد من الانتفاضات ، كان أخطرها ثورة ظُفار فى منتصف الستينات . وقد استبدل البريطانيون بالسلطان سعيد ابنَهُ قابوس ، الذى تقدّم ليسحق الثورة بقوات إيرانية وأردنية .

---

(١٠) فيليب حتى ، « تاريخ العرب » (لندن ، ماكميلان ، ١٩٨٠) ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧ . (إ.).

(١١) نبيل م . كيلانى ، « السياسة والدين فى عمان : نظرة تاريخية » ، المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ، ١٠ : ٤ (نوفمبر ١٩٧٩) : ٥٧٤ . (إ.) .

يشكل الحاكمون الإباضيون أغلبية فى عُمان . وتتركز الأقلية السنية فى منطقة « ظفار » الفقيرة جدا ، وفى القبائل الوهّابية فى الداخل . ويبدو أن سياسة السلطان الإصلاحية قد خفّفت من عداوة الظفاريين ، على الرغم من أن أى مبادرة من اليمن الجنوبى بدعم سوفيتّى يمكن أن تحرك ثورة سنية أخرى . لا تمثل الأقلية الشيعية الصغيرة أى تحدّ . لكن السلطان يواجه معارضة من طائفته الإباضية المتمركزة غالبها فى قبائل منطقة « الجبل الأخضر » الجبليّة . تعود هذه المعارضة إلى ثورة ١٩٥٠ بقيادة الإمام غالب الذى كان زعيم قبائل الجبل الأخضر ، ومقيما فى المركز التقليدى للطائفة الإباضية فى « نزوىٰ » . ويقيم الإمام « غالب » فى السعودية منذ هزيمته .

وإذا قدر لهذه العناصر المعارضة أن تتقارب مع العناصر الخارجية الساخطة من سنّة وشيعة وماركسيين ، فإنها يمكن أن تشكّل تهديدا لقابوس . وقد أصبح السلطان محطّ انتقاد حادّ من القوميين العرب ومن الأصوليين ، وذلك بسبب استبداده وضعف تأييده للقضية الفلسطينية واقترابه من بريطانيا ونمو الارتباط بينه وبين الولايات المتحدة . عزلة عُمان هذه عن المحيط العربى دفعت السلطان إلى السعى نحو تقارب مستمر بينه وبين جيرانه فى « مجلس التعاون الخليجى » المنشأ حديثا .

« الإمارات العربية المتحدة » تركيبة مكونة من سبع مشيخات التقت فى اتحاد فيدرالى عام ١٩٧١ . جاء تجميع الإمارات الكبيرة والصغيرة تحت رعايةٍ بريطانيةٍ بمثابة محاولة لحل الصراعات العائلية والقبلية والاقتصادية التى ظلت قرونا عصيّة على التوحّد . نجحت تجربة الاتحاد نجاحا مَشوبا نتيجة لكراهية مختلف الحكام للتضحية بامتيازاتهم من أجل الصالح العام . ويضاعف من منافسات العائلات هذه عوامل سوء توزيع الثروة والمنازعات القبلية والحدودية ثم ضغوط القوى الخارجية ، خاصة إيران والعراق والسعودية وعمان[١٢] . بل إن ثمة عداوة مستمرة بين أكبر عضوين فى هذا الاتحاد وهما « أبو ظبى » و« دبىّ » اللتين تتّبعان

---

(١٢) انظر تقارير MERIP (يناير ١٩٨٠) : ١٩ – ٢٢ . (إ.) .

غالبا سياسة خارجية قائمة على الصراع . تشكّل التركيبة السكانية لـ «الإمارات»، فى ضوء العوامل السياسية المشار إليها ، موضوعا هاما من وجهة النظر الأصولية . تأثرت الإمارات السبع بهجرة جاليات وافدة ذات حجم مؤثر : عرب وغربيين وهنود وباكستانيين وإيرانيين وسواهم من شعوب جنوب آسيا . إن جذب الثروة النفطية ، وكذلك الاضطرار إلى التنمية الاقتصادية ، قد خلقا خللا كبيرا فى البناء السكانى ، وهو الأمر الذى ساهم فى ظهور المعارضة الإسلامية[١٣] . الأسر السبع الحاكمة فى الإمارات كلها سنيّة وكذلك معظم السكان الأصليين . ونظرا إلى وضع الأقلية من السكان العرب الأصليين فى الاتحاد ، واحتكارهم للقوة ومصادر الثروة ، فقد نما قدر من التوتر الملحوظ بينهم وبين الأغلبية الوافدة . لكن تنوع هذه الجماعات الوافدة واحتياجها إلى العمل جعل السيطرة عليها ممكنة . فى هذا السياق ، يمكن تمييز ثلاثة مصادر للأصولية ، لكن لا يشكل أى منها تهديدا مباشرا للاتحاد أو للأسر الحاكمة . أبرز مواقع الأصولية هو الطائفة الشيعية الفارسية التى تمثل ٣٠٪ من السكان ، وثلثاها من مواطنى « الإمارات » . يتركز معظم الشيعة فى « دبى » حيث يحتلّ بعضهم مركزا بارزا فى التجارة والمصارف والسياسة . هؤلاء الشيعة – الذين استقدمهم الشيخ « مكتوم » للعمل فى مشاريعه التجارية – يبدو منهم أحيانا تعاطف مع إيران سواء فى عهد الملكية أو الجمهورية الإسلامية . وتنظر السلطات الاتحادية إلى الشيعة على أنهم طابور خامس لإيران ، على الرغم من هدوئهم المعتاد . ومن الجدير بالنظر أن الشيخ « مكتوم » كان حريصا على إقامة علاقات ودية مع نظامى الشاه والخمينى تهدئة للشيعة فى الداخل وكلَون من التوازن تجاه الإمارات الأخرى التى تتزعمها « أبو ظبى » . وهناك مصدر آخر للأصولية يتمثل فى طائفة المبعدين الباكستانيين والهنود ، سنّةً وشيعة ، لكنهم لا يشكلون تهديدا سياسيا رئيسيا . أما الأهم من ذلك إلى حد ما فهو الانبعاث الحادث بين المواطنين من الطلاب وأبناء القبائل فى الإمارات الأصغر والأفقر مثل « عجمان » و« رأس الخيمة » . هذه المجموعة يمكن أن تثير شيئا من المعارضة للحكام ، بالتحالف مع الأصوليين العرب من

---

(١٣) نسبة المواطنين العرب فى الإمارات ٢٢٪ . انظر تقارير MERIP (يناير ١٩٨٠): ٢١ (أ.).

الوافدين . لكن العائد المادى للعمل ضمن النظام يرجّح عادة اللجوء إلى الحركية الإسلامية . وتحرص النخبة الحاكمة فى « الإمارات » ، من باب استرضاء تلك العناصر ، على التمسك بالممارسات الإسلامية ، وإن تكن مع قدر كبير من المرونة والإشباع .

كان للثورة الإيرانية تأثيرات مهمة ومتباينة على « الإمارات » . فبينما كان الشيوخ الحاكمون قلقين من التهديد العسكرى والمذهبى للثورة الإيرانية ، فإنهم قد حرصوا على إبعاد أنفسهم عن الحرب الإيرانية – العراقية . قام الشيخ زايد بعدة محاولات لإنهاء الحرب عن طريق جهود الوساطة . بل إن « الإمارات » حافظت على قدر غير يسير من العلاقات التجارية مع الجمهورية الإسلامية على الرغم من الخطر الغربى أثناء أزمة الرهائن . وفى يونيه ١٩٨٢ أعلنت « الإمارات » حيادها إزاء الحرب الإيرانية – العراقية ، وهو ما رحّب به آية الله الخمينى(١٤) .

فى الجبهة الداخلية ، شجع نجاح الثورة الإيرانية المواطنين القوميين والأصوليين من أبناء الطبقة الوسطى على الضغط من أجل اتحاد فيدرالى أكثر مركزية ، ووضع قيود للحد من الهجرة الأجنبية ، ومن أجل مشاركة سياسية حقيقية ، وتوزيعا أعدل للثروة(١٥) . لكن التنافس المستمر بين الشيوخ الحاكمين قد حال دون حدوث أى محاولة جادّة لإنجاز الإصلاحات البعيدة المدى اللازمة لبناء دولة اتحادية أقوى اتحادا وقابلية للنمو .

التوقعات المنتظرة للأصولية فى الخليـــج

قد يصبح انبعاث الإسلام بين الجماهير مصدرا رئيسيا لعدم الاستقرار فى الخليج ، على الرغم من طابعه غير النضالى بوجه عام . إن مختلف مظاهر هذا الانبعاث تعكس سخطا على النظام السياسى والاقتصادى القائم من قبل مختلف

---

(١٤) إيران تايمز (يونية ١٨ ، ١٩٨٢) : ٢ .

(١٥) تقارير MERIP (يناير ١٩٨٠) : ١٩ – ٢٢ ، ٢٥ .

المجموعات الاجتماعية والاقتصادية والطائفية – العرقية . وعلى هذا ، فإن التوجه الإسلامي بين السنيّين من أبناء القبائل والطبقة الوسطى يمثّل مطالبتهم بالمشاركة السياسية وبنصيب أعدل فى الثروة التى يحوزها الحكام والطبقات العليا . كذلك ، فإن الأصولية المحلية تهيىء وسيلة للاحتجاج على سياسة الحكام فى الإكثار من استقدام الأجانب الذى ينظر إليه على أنه يمثل تهديدا لسلامة المجتمعات الخليجية . أما أصولية العمال الوافدين – فى المقابل – فهى حركة احتجاج ضد الحكام وضد رعاياهم من المواطنين السنة . وأخيرا ، فإن الانبعاث الشيعى يعكس الوضع السياسى المهضوم للأقلية الإثنا عشرية(*) .

والخلاصة ، أن الحركة الإسلامية فى الخليج لا تمثل ظاهرة متجانسة . فهى منقسمة من الداخل ، وكل عناصرها المختلفة تتنافس على القوة والنفوذ . بعض الجماعات السنيّة المتطرفة اتهمت الشيعة فى عقائدهم وشكّكت فى ولاءاتهم . وقد ردّ الشيعة بالتأكيد على ولائهم للسلطات وهم فى نفس الوقت مستمرون على التشبّث فى عناد بمذهبيتهم الطائفية . إن حكام الخليج كانوا على صواب إذ لم يضطهدوا الجماعات الشيعية اضطهادا واسعا . إن ذلك لو حدث لكان من المحتمل أن يدفع الشيعة إلى اليأس والتهور ، بل ربما إلى الثورة ، والمتوقع أن يتلقوا دعما من إيران .

(*) الحكم بأن « انبعاث الإسلام بين الجماهير قد يصبح مصدرا رئيسيا لعدم الاستقرار فى الخليج » ، يوجه – كما هو ديدن الكتابات الغربية والعلمانية – رسالة **تخويف** إلى الحكومات وإلى الفئات الكارهة للإسلام . وفى هذا النص من الغموض والتعميم ما يجعله لا يعنى شيئا محددا . إن انبعاث الإسلام الصحيح بالمنهج الصحيح هو الطريق الوحيد إلى الاستقرار فى أى مكان . وفى غياب هذا الإسلام لا يتحقق أى استقرار حقيقى . والواقع خير شاهد على ذلك . والكاتب نفسه – مناقضا لنفسه – قال ذلك : « .. التهيّج الداخلى الناتج عن سوء توزيع الثروة والظلم الاجتماعى وفساد الحكم وانعدام الأمانة » (ص ٢٢٣) وكلها ثمار مرة لغياب الإسلام ، وليس لانبعاثه بين الجماهير .